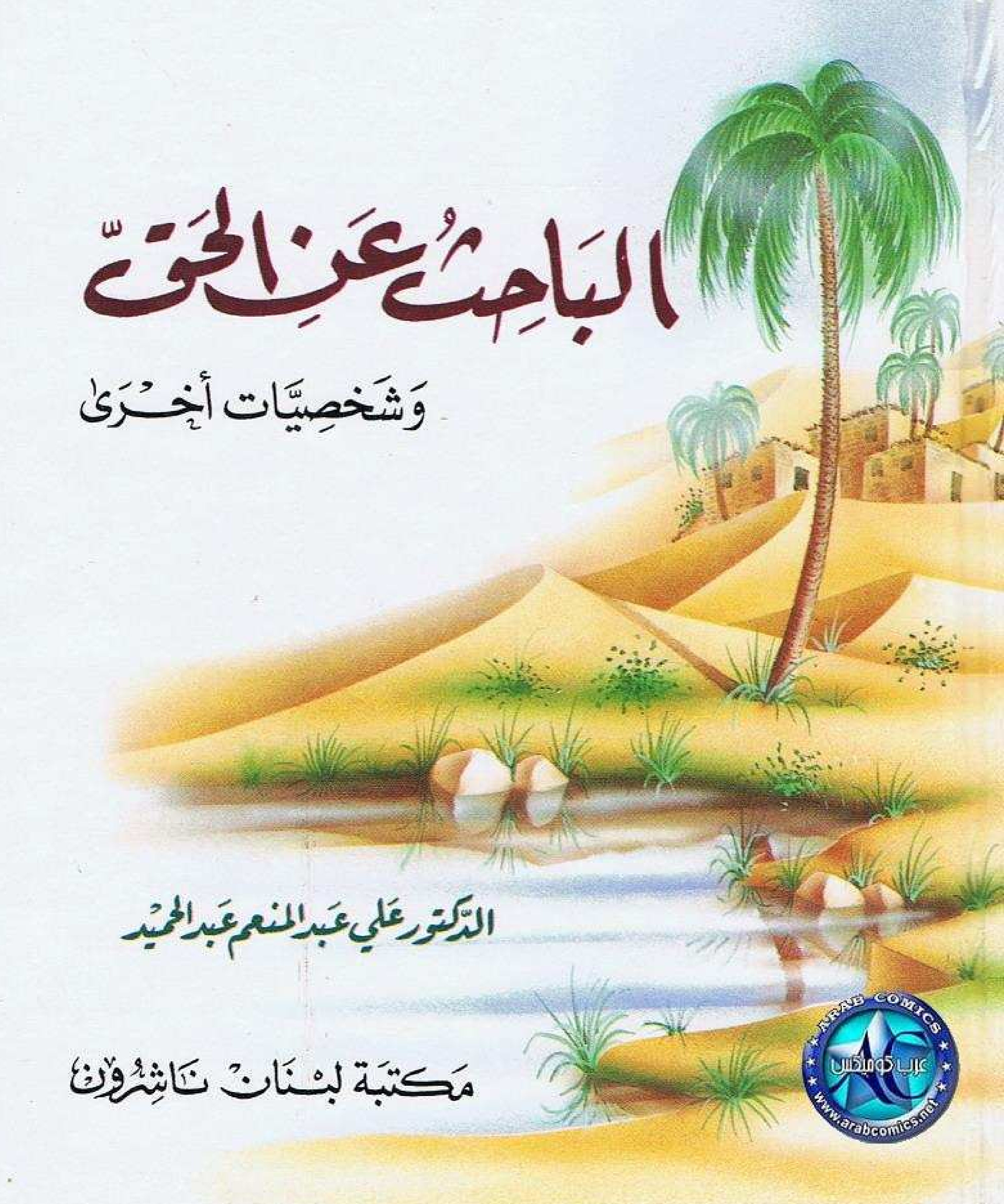
سلسلة رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

الباحث عن الحق

وشخصيات أخرى

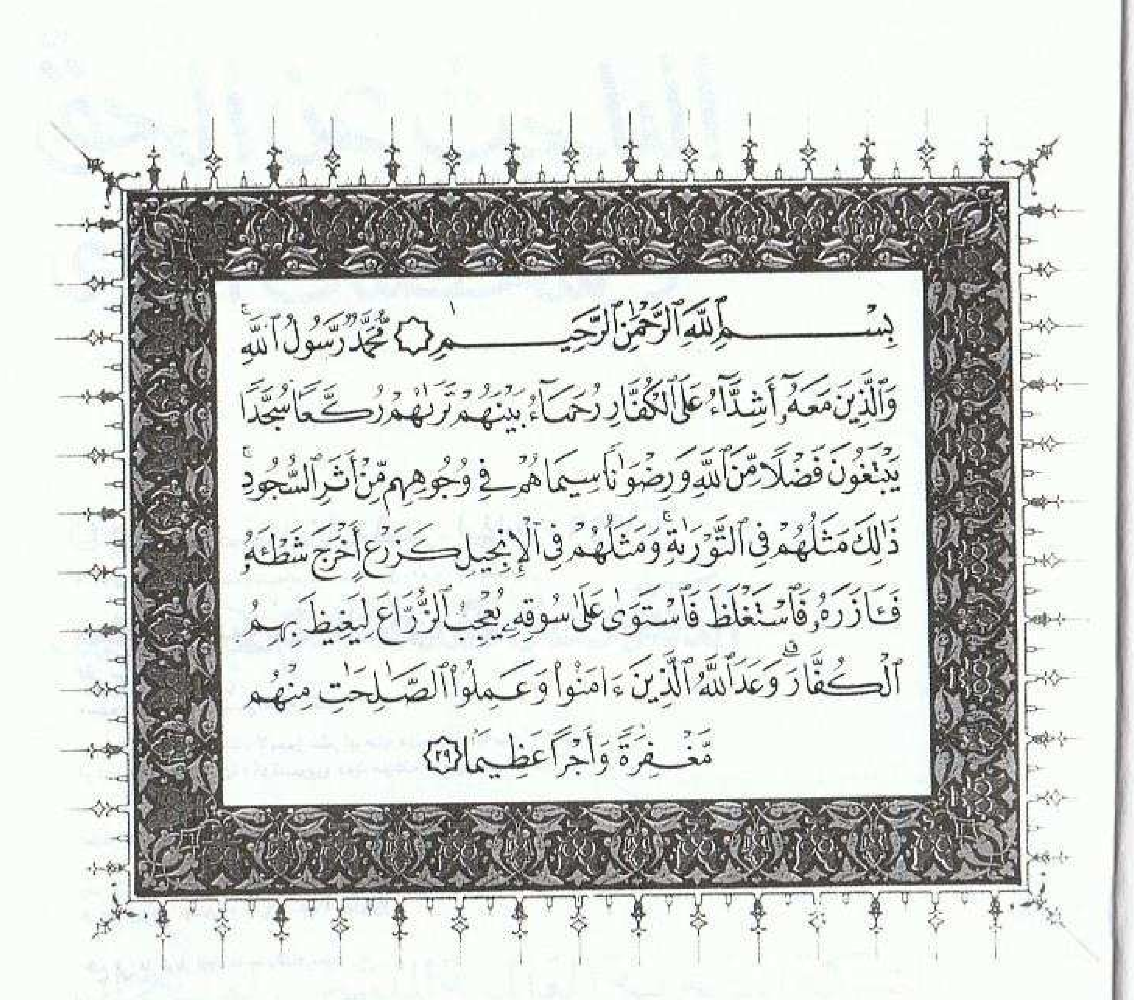


الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون

الباحث عن الحقّ

و شخصيّات أخرى



إشراف الدكتور على عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ)، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٦

رقم الإيداع ١٠٠٧٦ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠٢٢٨-٤

طبع في دار نوبار للطباعة ، بالقاهرة



نفحات من سيرة الرسول وصحبه

الباحث عن الحقّ و شخصيّات أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

ابْنُ الصّالِحين
(سالِم مَوْلى أبي حُذَيْفَة)

لَمْ يَعْهَدِ النّاسُ «سَلّام بْنَ حُبَيْرٍ القُرَظِيِّ» تاجِرَ رَقيقٍ وَإنّما عَهِدوهُ تاجِرًا يَحْمِلُ عُروضَ التجارَةِ المُخْتَلِفَةَ ، وَأصْنافَ البِضاعَةِ المُتَنوِّعَةَ ، مِنْ بِلادِ الشّامِ وَما حَوْلَها ؛ لِيَبيعَها في يَثْرِبَ (المدينَة) وَما حَوْلَها مِنَ البَوادي ، فَتَعودَ عَلَيْهِ بِالرِّبْحِ الوَفيرِ ، وَالغُنْمِ الكَبيرِ .

وَقَدْ عادَ مِنْ رِحْلَتِهِ إلى الشّامِ هَذِهِ المَرَّةَ ، فَأقْبَلَ النّاسُ عَلى ما يَحْمِلُهُ مِنْ تِجارَةٍ إقْبالاً شَديدًا ، وَابْتاعوها مِنْهُ بِثَمَنٍ باهِظٍ . وَاغْتَبَطَ «سَلّام» لِما حَقَّقَهُ مِنْ رِبْحٍ وَفيرٍ ، وَلَكِنَّ شَيْئًا كانَ يُنَغِّصُ عَلَيْهِ هَذِهِ الغِبْطَةَ ، وَيُسَبِّبُ لَهُ كَثيرًا مِنَ الألَمِ وَالضّيقِ ، فَقَدْ حَمَلَ مَعَهُ هَذِهِ المَرَّةَ بَيْنَ

عُروضِ تِجارَتِهِ - **صَبِيًّا صَغيرًا** ، اشْتَراهُ - كَما قالَ - مِنْ قَوْمٍ مِنَ العَرَبِ مِنْ بَني كَلْب ، زَعَموا لَهُ أنَّهُ فارِسِيُّ الأصْلِ ، مِنْ أسْرَةٍ ثَرِيَّةٍ عَريقَةٍ ، قَدِمَتْ أرْضَ « الأُبُلَّة » في العِراقِ . وَاشْتَغَلَتْ بِالزِّراعَةِ ، وَجَنَتْ مِنْ وَرائِها أمْوالاً طائِلَةً ، فَلَمّا أغارَ الرّومُ عَلى بِلادِ العِراقِ ، الَّتي تَدينُ بِالوَلاءِ لِلْفُرْسِ - وَكانَ مَعَ الرّومِ بَعْضُ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ الَّتي تَدينُ لَهُمْ بِالوَلاءِ - أخَذوا هَذا الصَّبِيَّ الصَّغيرَ فيما أخَذوا مِنْ مَتاعٍ وَأمْوالٍ وَنِساءٍ وَأطْفالٍ ، ثُمَّ باعَهُ مَنْ أخَذوهُ أوِ اخْتَطَفوهُ لِبَني كَلْب .

وَكانَ الصَّبِيُّ ضامِرًا هَزيلاً ، قَدْ مَسَّهُ الضُّرُّ ، وَبانَ عَلَيْهِ الضَّعْفُ ، تَقْتَحِمُهُ العَيْنُ وَلا تَثْبُتُ عَلَيْهِ ، كَما أنَّهُ لا يَعْرِفُ مِنَ العَرَبِيَّةِ حَرْفًا ، وَلا يَعرِفُ مِنَ الرّومِيَّةِ شَيْئًا ، وَإنَّما يَلْتَوي لِسانُهُ بِبَضْعِ كَلِماتٍ مِنَ الفارِسِيَّةِ لا تَكادُ تَبينُ ، وَيُشيرُ إلى مَنْ يُحَدِّثُهُ بِيَدَيْهِ ، وَيومِئُ بِعَيْنَيْهِ ، فَهُوَ لا يَسْتَطيعُ أنْ يُظْهِرَ ما في نَفْسِهِ إلا بِالإشارَةِ الَّتي لا تُغْني

كثيرًا

عَرَضَ « سَلّام » صَبِيَّهُ هذا على العَرَبِ مِنْ أهلِ يَثْرِبَ فَرَغِبوا عَنْهُ ، وَعَرَضَهُ على اليَهودِ فَزَهِدوا فيه ، وَظَنَّ النّاسُ أنَّ هَذا الرَّجُلَ قَدِ اشْتَرى الصَّبِيَّ لِنَفْسِهِ ، ثُمَّ اطَّلَعَ مِنْهُ على بَعْضِ العُيوبِ ، أوْ رَأى فيهِ بَعْضَ الآفاتِ - فَآثَرَ أنْ يَبيعَهُ ، وَلَوْ كانَ فيهِ فائِدَةٌ لأمْسَكَهُ على نَفْسِهِ ، فَما نَعْرِفُ أنَّ « سَلّام » تاجِرُ رَقيقٍ ، وَما عَهِدْناهُ قَدْ جَلَبَ مِنْ قَبْلُ رَقيقًا . وَكانَ « سَلّام » يُحاوِلُ أنْ يُغْرِيَ النّاسَ بِشِرائِهِ ، وَيُرَغِّبَهُمْ فيهِ ، فَيَقولَ لَهُمْ : « إنَّ هَذا الصَّبِيَّ ماهِرٌ حاذِقٌ ، ذَكِيُّ القَلْبِ ، سَريعُ الفَهْمِ ، لَوْ وَجَدَ مِنَ الطَّعامِ ما يَكْفيهِ وَيُنَمّيهِ ، وَلَوْ أنَّ لي زَوْجَةً تَرْعاهُ في غِيابي ما فَرَّطْتُ فيهِ . » وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقْبَلْ أحَدٌ على شِراءِ الصَّبِيِّ ؛ إذْ لَمْ يَقْتَنِعْ أحَدٌ بِما يَزْعُمُهُ « سَلّام » .

وَشَعَرَ « سَلّام » بِضيقٍ شَديدٍ ، وَانْتابَهُ هَمٌّ مُقيمٌ ؛ فَهَذا الصَّبِيُّ الَّذي ظَنَّ أنَّهُ سَيَبيعُهُ بِأضْعافِ ما أدّاهُ فيهِ مِنْ ثَمَنٍ ،

وَأنَّهُ سَيُحَقِّقُ مِنْ وَرائِهِ رِبْحًا كَثيرًا - هَذا الصَّبِيُّ لَمْ يَرْغَبْ فيهِ أحَدٌ ، وَما زالَ يَقومُ بِالإنْفاقِ عَلَيْهِ دونَ أنْ يَنْتَظِرَ مِنْ وَرائِهِ شَيْئًا . إنَّها لَخَسارَةٌ فادِحَةٌ !

وَبَيْنَما هَذِهِ الخَواطِرُ تَزْحَمُ عَقْلَ سَلّام ، وَتُؤذيهِ إيذاءً مُنْكَرًا ، وَتُسَبِّبُ لَهُ ألَمًا بالِغًا ؛ إذْ مَرَّتْ عَلَيْهِ « ثُبَيْتَةُ بِنْتُ يَعار » الأوْسِيَّةُ ، فَوَقَعَ بَصَرُها على الصَّبِيِّ وَلَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَنْقُلَهُ عَنْهُ ، وَلا أنْ تُحَوِّلَهُ جِهَةً أخْرى ؛ فَقَدْ تَفَجَّرَتْ في نَفْسِها يَنابيعُ الرَّحْمَةِ لَهُ ، وَفاضَ قَلْبُها إشْفاقًا عَلَيْهِ ، وَأحَسَّتْ في أعْماقِها حُنُوًّا بالِغًا على هَذا الطِّفْلِ ، وَكَأنَّها أمُّهُ عَثَرَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ ضَياعٍ طَويلٍ . . وَقَفَتْ « ثُبَيْتَة » أمامَ الصَّبِيِّ لا تَسْتَطيعُ حَراكًا ، ثُمَّ قالَتْ لِسَلّام : « ما اسْمُ هَذا الصَّبِيِّ ؟ »

أجابَها « سَلّام » : « زَعَمَ مَنْ باعَهُ لي أنَّ اسْمَهُ ‹‹ سالِم ›› . »

قالَتْ « ثُبَيْتَة » : « سالِمُ ابْنُ مَنْ ؟ »

أجابَها سَلّام : « زَعَمَ مَنْ باعَهُ لي أنَّهُ مِنْ أسْرَةٍ فارِسِيَّةٍ . . »

وَلَمْ تَدَعْهُ « ثُبَيْتَة » يُتِمُّ حَديثَهُ ، فَقالَتْ لَهُ :

« لَقَدْ حَفِظْنا قَوْلَكَ هَذا ، وَأنْتَ لا تَعْرِفُ أباهُ وَلا تَعْرِفُ أُمَّهُ . . إنَّني أُريدُ شِراءَهُ . . فَبِكَمْ تَبيعُهُ ؟ »

زَغْرَدَتِ الفَرْحَةُ في صَدْرِ «سَلّام» ، وَلَكِنَّهُ أظْهَرَ الجِدَّ وَالحَزْمَ ، وَقالَ لَها : « أُريدُ فيهِ الثَّمَنَ الَّذي دَفَعْتُهُ ، ثُمَّ ما أنْفَقْتُهُ عَلَيْهِ مُنْذُ اشْتَرَيْتُهُ حَتّى الآنَ . »

وَساوَمَتْهُ « ثُبَيْتَة » حَتّى رَضِيَ ، وَقَبَضَ الثَّمَنَ ، وَدَفَعَ لَها الصَّبِيَّ .

عادَ « سَلّام » بِثَمَنِ الصَّبِيِّ ، وَقَدْ رَبِحَ فيهِ رِبْحًا طَيِّبًا ، فَرَضِيَ عَنْ صَفْقَتِهِ بَعْدَ سَخَطٍ ، وَرَضِيَ عَنْ حِذْقِهِ في التِّجارَةِ ، وَمَهارَتِهِ في المُساوَمَةِ . وَرَجَعَتْ « ثُبَيْتَة » بِالصَّبِيِّ « سالِم » وَهِيَ راضِيَةٌ عَنْ نَفْسِها كُلَّ الرِّضا ،

مُطْمَئِنَّةٌ إلى ما صَنَعَتْ كُلَّ الاطْمِئْنانِ ، مُسْتَبْشِرَةٌ بِفِعْلِها كُلَّ الاسْتِبْشارِ . . وَهِيَ إنَّما رَضِيَتْ وَاطْمَأنَّتْ وَاسْتَبْشَرَتْ ؛ لأنَّها اشْتَرَتْ هَذا الصَّبِيَّ لا لِتَتَّخِذَهُ عَبْدًا رَقيقًا ، بَلْ لِتَرْعاهُ وَتَصونَهُ ، وَتُنْقِذَهُ مِمّا هُوَ فيهِ مِنْ ضُرٍّ وَبُؤْسٍ .

بَلَغَتْ « ثُبَيْتَة » دارَها ، فَأطْعَمَتِ الصَّبِيَّ « سالِم » مِنْ جوعٍ ، وَكَسَتْهُ مِنْ عُرْيٍ ، وَأحَسَّ « سالِم » إلى جِوارِها دِفْءَ الأُمومَةِ وَحَنانَها ، وَرِقَّتَها وَشَفَقَتَها ؛ فَأمِنَ بَعْدَ خَوْفٍ ، وَأنِسَ بَعْدَ فَزَعٍ . . وَأخَذَ جِسْمُهُ يَنْمو ، وَمَواهِبُهُ تَتَفَتَّحُ .

وَكانَتْ « ثُبَيْتَة » حينَ تَنْظُرُ إلى « سالِم » وَهُوَ يَنْمو بَيْنَ يَدَيْها ، وَيَشِبُّ تَحْتَ بَصَرِها - تَقولُ لِنَفْسِها : « ما أقْسى أنْ يَنْشَأَ الإنْسانُ لا يَعْرِفُ لَهُ أبًا يَسْتَنِدُ إلَيْهِ ، وَلا يَعْرِفُ لَهُ أُمًّا تَحْنو عَلَيْهِ ، وَلا يَعْرِفُ لَهُ قَبيلَةً يَأوي إلَيْها ! تُرى ماذا صَنَعَتْ أُمُّ هَذا الصَّبِيِّ ؟ هَلِ اغْتُصِبَ مِنْها ابْنُها

اغْتِصابًا ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَذودَ عَنْهُ المُغْتَصِبينَ ، أمِ اخْتُطِفَ اخْتِطافًا فَلَمْ تَرَهُ وَلَمْ تَسْمَعْ عَنْهُ ؟ إنَّها - لا رَيْبَ - مَأساةٌ مُرَوِّعَةٌ أنْ تَفْقِدَ أمٌّ طِفْلَها ، فَتَعيشَ في لَوْعَةٍ وَحَسْرَةٍ ، وَتَحيا تَتَسَقَّطُ أخْبارَهُ فَلا تَبْلُغُ مِنْها شَيْئًا ! لَقَدِ اغْتُصِبَ هَذا الصَّبِيُّ أوِ اخْتُطِفَ مِنْ بِلادِ الفُرْسِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ جُنودُ كِسْرى حِمايَتَهُ وَالدِّفاعَ عَنْهُ ، لَنْ أتَّخِذَ زَوْجًا ، وَلَنْ أنجبَ طِفْلاً ، يَكونُ مَصيرُهُ مَصيرَ هَذا الصَّبِيِّ ، وَيَكونُ نَصيبي مِنَ الفَجيعَةِ وَالحَسْرَةِ مِثْلَ نَصيبِ أمِّهِ ، خاصَّةً وَنَحْنُ نَعيشُ في بَلَدٍ يُحيطُ بِهِ الأغْرابُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَيَحْمِلُ أبْناؤُهُ السُّيوفَ بَعْضُهُمْ ضِدَّ بَعْضٍ ، فَيَقْتُلونَ الآباءَ وَالأزْواجَ ، فَتَثْكَلُ الأمَّهاتُ ، وَتَتَرَمَّلُ الزَّوْجاتُ ! لا لَنْ أتَّخِذَ زَوْجًا . »

كانَ الصَّبِيُّ « سالِم » يَنْمو تَحْتَ سَمْعِ « ثُبَيْتَة » وَبَصَرِها ، وَهِيَ بِهِ فَرِحَةٌ ، وَعَنْهُ راضِيَةٌ - وَيَنْمو مَعَهُ إصْرارُها عَلى عَدَمِ الرَّغْبَةِ في الزَّواجِ ، وَإمْعانُها في

ذَلِكَ إمْعانًا شَديدًا ، وَاعْتِلالُها عَلى مَنْ تَقَدَّمَ إلى خِطْبَتِها مِنْ أشْرافِ قَبيلَتَي « الأوْس » وَ« الخَزْرَج » بِكُلِّ العِلَلِ ، وَاحْتِيالُها في ذَلِكَ احْتِيالاً بالِغًا ، حَتّى ضاقَ بِها أهْلُها ، فَتَرَكوها وَشَأنَها !

وَذاتَ يَوْمٍ مَرَّ وَفْدٌ قُرَشِيٌّ بِـ « يَثْرِبَ » ، كانَ عائِدًا مِنْ رِحْلَةٍ تِجارِيَّةٍ في بِلادِ الشّامِ ، وَكانَ « أبو حذيفة بْنُ عُتْبَة ابْنُ ربيعة » مِنْ بَيْنِ هَذا الوَفْدِ . فَتَناهى إلى مَسامِعِهِ حَديثٌ عَنْ « ثُبَيْتَة » وَصَبِيِّها ، وَنُفورِها مِنَ الزَّواجِ أوْ إضْرابِها عَنْهُ ، فَراحَ يَتَتَبَّعُ أخْبارَها ، وَيَتَعَرَّفُ أنْباءَها ، فَتَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِها ، وَلَمْ يَرَها ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْها ، وَإنَّما سَمِعَ عَنْها فَشُغِفَ بِها ، وَتَقَدَّمَ إلى أهْلِها يَخْطُبُها .

تَمَنَّعَتْ « ثُبَيْتَة » قَليلاً ، ثُمَّ وافَقَتْ عَلى الزَّواجِ مِنْهُ ، بَعْدَ أنْ عَلِمَتْ أنَّهُ مِنْ سادَةِ « قُرَيْش » وَأشْرافِها ، وَأنَّهُ يَعيشُ بِجِوارِ البَيْتِ العَتيقِ ، حَيْثُ الأمْنُ وَالأمانُ وَالأُنْسُ وَالاطْمِئْنانُ ، وَأنَّهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِرِعايَةِ غُلامِها « سالِم » كَما

تَكَفَّلَ بِرِعايَتِها . وَارْتَحَلَتْ « ثُبَيْتَة » وَغُلامُها « سالِم » مَعَ زَوْجِها « أَبي حُذَيْفَة » إلى مَكَّةَ .

وَلا يَكادُ « أبو حُذَيْفَة » يَصِلُ إلى مَكَّةَ ، وَيُلْقي بِأَحْمالِهِ وَأَثْقالِهِ في دارِهِ حَتّى يُنْكِرَ مِنْ أَمْرِ مَكَّةَ شَيْئًا كَثيرًا ، وَيُحِسَّ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فيها ما غَيَّرَها تَغْييرًا كَبيرًا ، وَيُدْرِكَ أَنَّ هَذا الهُدوءَ الَّذي يَبْدو عَلى سَطْحِها يُخْفي تَحْتَهُ اضْطِرابًا شَديدًا ، كَما يُخْفي الرَّمادُ جَذْوَةَ النّار .

وَكانَ « أبو حُذَيْفَة » رَجُلاً عاقِلاً رَشيدًا ، مَنَحَهُ اللهُ رِقَّةً في الطَّبْعِ ، وَدِقَّةً في الحِسِّ ، وَرَهافَةً في الشُّعورِ . . فَآثَرَ أَنْ يَمْضِيَ إلى رَجُلٍ ، يَعْرِفُ قَدْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ ، وَتَرْبِطُ بَيْنَهُما صَداقَةٌ قَوِيَّةٌ حَميمَةٌ ، زادَتْها صُحْبَةُ الأَسْفارِ قُوَّةً وَوَثاقَةً . وَانْطَلَقَ إلى بَيْتِ « عُثْمانَ بْنِ عَفّان » ، وَاسْتَقْبَلَهُ « عُثْمان » بِما تَعَوَّدَ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِهِ مِنَ البِشْرِ وَالتَّرْحابِ ، وَسَأَلَهُ « أبو حُذَيْفَة » عَمّا اعْتَرى قُرَيْشًا مِنْ تَغْيير ، وَأَخْبَرَهُ « عُثْمان » بِبَعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ ، وَأَنَّ رَجُلاً مِثْلَهُ -

في رَجاحَةِ عَقْلِهِ ، وَحَصافَةِ رَأْيِهِ - لا يَنْبَغي أَنْ يَفوتَهُ هَذا الخَيْرُ الَّذي يَدْعو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَقالَ لَهُ أبو حُذَيْفَة : « وَمَتى يُمْكِنُ أَنْ نَذْهَبَ إلى « مُحَمَّدٍ » ﷺ لِنَلْقاهُ ؟

وَأَجابَ « عُثْمان » : « اللَّحْظَةَ إِنْ شِئْتَ . »

وَخَرَجَ « أبو حُذَيْفَة » في صُحْبَةِ « عُثْمانَ بْنِ عَفّان » حَتّى لَقِيا رَسولَ اللهِ ﷺ ، فَأَعْلَنَ « أبو حذيفة » إِسْلامَهُ ، وَعادَ بِالإِسْلامِ إلى دارِهِ فَأَسْلَمَتْ زَوْجُهُ « ثُبَيْتَة » ، وَسَمِعَ الغُلامُ « سالِم » حَديثَهُما فَدَخَلَ في الإِسْلامِ ، وَهَكَذا لَمْ تَغْرُبِ الشَّمْسُ حَتّى كانَتْ بُيوتُ المُسْلِمينَ في مَكَّةَ قَدْ زادَتْ بَيْتًا .

وَعَرَفَتْ « ثُبَيْتَةُ » أَنَّ الرَّسولَ ﷺ يَدْعو إلى تَحْرير وَعِتْقِ الرَّقيق ، وَتَخْليصِهِمْ مِنْ ذُلِّ العُبودِيَّةِ لِلإِنْسانِ ، فَما تَكونُ العُبودِيَّةُ إلا للهِ وَحْدَهُ . وَحينَئِذٍ أَرْسَلَتْ « ثُبَيْتَةُ » إلى غُلامِها « سالِم » فَقالَتْ لَهُ : « إِنّي قَدْ

أَعْتَقْتُكَ لِوَجْهِ اللهِ ! فَاذْهَبْ حَالِفْ مَنْ شِئْتَ . »

وَاتَّجَهَ « سالِم » إلى أبي حُذَيْفَة وَقالَ لَهُ : « هَلْ تَتَّخِذُني مَوْلًى لَكَ ، يا ‹‹ أبا حُذَيْفَة ›› ؟ »

وَأَجابَهُ « أبو حُذَيْفَة » : « لا ، يا سالِم ، إنَّكَ مُنْذُ اليَوْمَ ابْنٌ لي . »

وَأَصْبَحَ يُدْعى « سالِم بْنُ حُذَيْفَة » أو « سالِمٌ ابْنُ الصالِحين »

* * *

وَمَضَتْ الأيّامُ ، وَهاجَرَ « سالِم » فيمَنْ هاجَرَ إلى الحَبَشَةِ ، ثُمَّ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، قُبَيْلَ هِجْرَةِ الرَّسولِ ﷺ إلَيْها ، وَأَقامَ بِضاحِيَةِ « قُباء » مَعَ المُهاجِرينَ وَالأنْصار ، يَنْتَظِرونَ مَقْدَمَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَأَقامَ المُسْلِمونَ الصَّلاةَ في « قُباء » ، وَنَظَروا إلى أَحْسَنِهِمْ قِراءَةً لِلْقُرْآنِ الكَريمِ ، وَأَشَدِّهِمْ حِفْظًا عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ

فَإذا هُوَ « سالِم » فَقَدَّموهُ لِيَكونَ لَهُمْ إمامًا في الصَّلاةِ وَفيهِمْ كِبارُ المُهاجِرينَ ، أَمْثالُ : عُمَرَ بْنِ الخَطّاب ، الَّذي قالَ عَنْهُ ابْنُ مَسْعود فيما بَعْدُ : كانَ إسْلامُهُ فَتْحًا ، وَكانَتْ هِجْرَتُهُ نَصْرًا ، وَكانَتْ خِلافَتُهُ رَحْمَةً !

وَيَنْظُرُ المُشْرِكونَ مِنْ أَهْلِ المَدينَةِ إلى المُسْلِمينَ ، يُقَدِّمونَ هٰذا الفَتى لِيَؤُمَّهُمْ في صَلاتِهِمْ ، فَيَكْبُرُ شَأْنُهُ في نُفوسِهِمْ ، وَيَعْظُمُ أَمْرُهُ بَيْنَهُمْ ، وَيَقولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ هٰذا الفَتى الَّذي يَتَقَدَّمُ كِبارَ المُسْلِمينَ ، سَواءٌ مَنْ كانَ مِنْهُمْ مُهاجِرًا ، أَوْ مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ المَدينَةِ مُقيمًا فيها ؟ ثُمَّ يَقولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَلا تَذْكُرونَهُ ؟ إنَّهُ « سالِم » ذَلِكَ الصَّبِيُّ الَّذي اشْتَرَتْهُ « ثُبَيْتَة بِنْتُ يَعار » مِنَ التاجِرِ سَلام بْنِ حُبَيْر . . ثُمَّ يَتَساءَلونَ : كَيْفَ يُقَدِّمُ هٰؤُلاءِ عَبْدًا فارِسِيًّا عَلَيْهِمْ ؟ وَيَثوبُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ، فَيَقولونَ : إنَّ الإسْلامَ الَّذي جاءَ بِهِ « مُحَمَّدٌ » ﷺ يُلْغي الفَوارِقَ بَيْنَ الأَحْرارِ وَالرَّقيقِ ، وَيَدْعو إلى المُساواةِ وَالإنْصافِ بَيْنَ

النّاسِ ، وَيَعْرِفونَ مِنَ المُسْلِمينَ : أنَّ الإسْلامَ لا يُفَضِّلُ أحَدًا عَلى أحَدٍ إلا بالتَّقْوى التَّي تَعْمُرُ القُلوبَ ، والعَمَلِ الصّالِحِ الَّذي تُثْمِرُهُ ، فَيَنْفَعُ النّاسَ أجْمَعينَ . . . وَهُنالِكَ تَتوقُ نُفوسُهُمْ إلى أنْ تَتَذَوَّقَ هَذِهِ المُساواةَ الرّائِعَةَ ، وَتَتَمَتَّعَ بِهَذا الإنْصافِ الجَليلِ ، فَيَدْخُلونَ في الإسْلامِ !

* * *

وَيَعودُ « سالِم » إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، بَعْدَ أنْ فارَقَها زَمَنًا طَويلاً ، وَيَعيشُ بَيْنَ رُبوعِها يَنْعَمُ بالقُرْبِ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَيَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهِ وَخُلُقِهِ ، وَيَأخُذُ عَنْهُ فَيُحْسِنُ الأخْذَ . . ثُمَّ يَتَزَوَّجُ « فاطِمَةَ بِنْتَ الوليدِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبيعَةَ » ، عَمُّها « أبو حُذَيْفَةَ » فَتَكونُ لَهُ نِعْمَ الزَّوْجَةُ ، كَما يَكونُ لَها نِعْمَ الزَّوْجِ .

وَيَأذَنُ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ في الجِهادِ ، فَيَكونُ « سالِم » في مُقَدِّمَةِ المُجاهِدينَ في سَبيلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَيَحْضُرُ المَشاهِدَ كُلَّها مَعَ الرَّسولِ ﷺ ، يَبْغي الشَّهادَةَ وَرِضْوانَ

اللهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَدَّخِرُهُ لِيَوْمٍ عَظيمٍ !

لَقَدِ ارْتَدَّتْ بَعْضُ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ عَنِ الإسْلامِ بَعْدَ مَوْتِ الرَّسولِ ﷺ ، وَتَصَدّى الخَليفَةُ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِقِتالِ المُرْتَدّينَ . وَخَرَجَ صَفْوَةُ الصَّحابَةِ لِلْجِهادِ ، وَكانَ « سالِم » في مُقَدِّمَةِ المُجاهِدينَ ، الَّذينَ دَفَعَ بِهِمُ الخَليفَةُ أبو بَكْرٍ لِقِتالِ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » بِقِيادَةِ « خالِدِ بْنِ الوَليدِ » سَيْفِ اللهِ المَسْلولِ .

وَكانَتِ الجَوْلَةُ الأولى لِمُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ وَأتْباعِهِ ؛ فَقَدْ زَحْزَحوا المُسْلِمينَ عَنْ مَواقِعِهِمْ ، وَراحَ المُسْلِمونَ يُعَيِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَّهِمُ كُلٌّ مِنْهُمْ غَيْرَهُ في أنَّهُ السَّبَبُ فيما حاقَ بِهِمْ مِنْ هَزيمَةٍ ، وَما نَزَلَ بِهِمْ مِنْ بَلاءٍ . . فَأصَرَّ « خالِد » عَلى أنْ يُمَيِّزَ كُلَّ طائِفَةٍ مِنَ المُسْلِمينَ عَنْ غَيْرِها ، حَتّى يَعْرِفَ مِنْ أيْنَ تَأتي الهَزيمَةُ ، فَجَعَلَ لِلْمُهاجِرينَ رايَةً يُقاتِلونَ تَحْتَها ، وَجَعَلَ لِلأنْصارِ رايَةً ، وَجَعَلَ لأهْلِ البَوادي رايَةً أخْرى .

وَحَمَلَ « زَيْدُ بْنُ الخَطَّابِ » رايَةَ المُهاجِرينَ ، وَقاتَلَ حَتّى اسْتُشْهِدَ ، فَحَمَلَها مِنْ بَعْدِهِ « سالِم » ، فَقالَ المُهاجِرونَ لَهُ : « نَخْشى أنْ نُؤْتى مِنْ قِبَلِكَ . » أي (نهزم بِسَبَبِكَ)

فَكانَ جَوابُهُ عَلَيْهِمْ :

« بِئْسَ حامِلُ القُرآنِ أنا إنْ أوتيتُمْ مِنْ قِبَلي . »

ثُمَّ انْدَفَعَ يُقاتِلُ ، وَاللِّواءُ خَفّاقٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، حَتّى دارَتِ الدّائِرَةُ عَلى « مُسَيْلَمَةَ الكَذّابِ » وَأنْصارِهِ ، فَلَجَئوا إلى الحَديقَةِ ، الَّتي عُرِفَتْ في التّاريخِ بِأنَّها « حَديقَةُ المَوْت » ؛ فَقَدْ حَصَدَ فيها المُسْلِمونَ المُرْتَدّينَ حَصْدًا ، وَقَتَلوهُمْ قَتْلاً ذَريعًا .

وَتَحْتَ أسْوارِ هَذِهِ الحَديقَةِ صُرِعَ « سالِم » وَهُوَ يَتْلو قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيّونَ كَثيرٌ فَما وَهَنوا لِما أصابَهُمْ في سَبيلِ اللهِ وَما ضَعُفوا وَما اسْتَكانوا وَاللهُ يُحِبُّ الصّابِرينَ . ﴾

ثُمَّ سَألَ إخْوانَهُ عَنْ « أبي حُذَيْفَة » فَقالوا لَهُ : لَقَدِ اسْتُشْهِدَ . ثُمَّ سَألَهُمْ عَنْ صَحابِيٍّ آخَرَ ، فَأخْبَروهُ بِأنَّهُ اسْتُشْهِدَ كَذَلِكَ . فَطَلَبَ مِنْهُمْ أنْ يُضْجِعوهُ بَيْنَهُما !

رَحِمَ اللهُ « سالِمًا » مَوْلى « أبي حُذَيْفَة » أو « ابْنَ الصّالِحينَ » كَما سَمّاهُ الصَّحابَةُ ، الَّذي قالَ عَنْهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ - وَهُوَ يَجودُ بِأنْفاسِهِ :

« لَوْ كانَ « سالِم » حَيًّا ما جَعَلْتُها شورى » أي كُنْتُ أصْدَرْتُ عَنْ رَأيي ، وَعَهِدْتُ بِالخِلافَةِ إلَيْهِ ، كَما فَعَلَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

الفارِسُ المُجَدَّعُ

(عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْش)

وَقَفَ « سَعيدُ بْنُ المُسَيَّبِ » في مَسْجِدِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، يَقُصُّ حَياةَ هَذا الفارِسِ المُجَدَّعِ في اللهِ ، وَيُبَيِّنُ لِلنّاسِ أَنَّهُ قَدْ قُطِعَتْ أُذُناهُ وَأَنْفُهُ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ؛ اسْتِجابَةً مِنَ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) لِدَعْوَتِهِ ، فَأَطْلَقَ الرَّسولُ وَالمُسْلِمونَ عَلَيْهِ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ .

وَهُوَ ابْنُ عَمَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ (أُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِب) وَصِهْرُ الرَّسولِ ﷺ ؛ إِذْ هُوَ أَخو زَوْجَةِ النَّبِيِّ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عُقِدَ لَهُ لِواءٌ مِنَ المُسْلِمينَ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دُعِيَ « أَميرَ المُؤْمِنينَ » !

أَسْلَمَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ » قَبْلَ أَنْ يَكْتَمِلَ عَدَدُ

المُسْلِمينَ عَشَرَةً ، وَقَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ النَّبِيُّ ﷺ دارَ الأَرْقَمِ ، فَهُوَ مِنَ السّابِقينَ إِلى الإِسْلامِ ، المُسارِعينَ إِلى التَّصْديقِ بِالدَّعْوَةِ ، المُؤازِرينَ لِلرَّسولِ الكَريمِ . وَلَمْ يُسْلِمْ وَحْدَهُ ، بَلْ أَسْلَمَ مَعَهُ أَهْلُ بَيْتِهِ ، وَمُعْظَمُ عَشيرَتِهِ وَحَيِّهِ ؛ فَقَدْ كانَ سَيِّدَ الحَيِّ .

وَجَهَدَتْ قُرَيْشٌ في أَنْ تَفْتِنَهُمْ (تَصُدَّهُمْ) عَنْ دينِهِمْ فَما فُتِنوا ، وَقَسَتْ في مُعامَلَتِهِمْ كَيْ تَرُدَّهُمْ إِلى دينِها فَما وَهَنوا (ضَعُفوا) . لَقَدْ صَغُرَتِ الدُّنْيا في نُفوسِهِمْ ، وَتَعَلَّقَتْ بِاللهِ قُلوبُهُمْ ، وَهانَ عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ في سَبيلِهِ .

فَما إِنْ مَهَّدَ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ الهِجْرَةَ إِلى يَثْرِبَ (المَدينَة المُنَوَّرَة) حَتَّى خَرَجوا إِلَيْها ، وَكانَ في مُقَدِّمَةِ المُهاجِرينَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ، كانَ ثانِيَ المُهاجِرينَ ، لَمْ يَسْبِقْهُ إِلى الهِجْرَةِ إِلا أَبو سَلَمَةَ .

وَلَمْ تَكُنِ الهِجْرَةُ وَمُفارَقَةُ الأَوْطانِ جَديدَةً عَلى عَبْدِ اللهِ ؛ بَلْ هِيَ مَأْلوفَةٌ لَدَيْهِ ، مَعْروفَةٌ عِنْدَهُ ؛ فَقَدْ كانَ مِنَ

السّابقينَ إلى الهِجْرَةِ إلى بلادِ الحَبَشَةِ ، وَلَكِنَّ هِجْرَتَهُ في هَذِهِ المَرَّةِ تَخْتَلِفُ عَنْ هِجْرَتِهِ إلى الحَبَشَةِ . . فَقَدْ هاجَرَ إلى الحَبَشَةِ هُوَ وَبَعْضُ أَهْلِهِ ، أَمّا في هَذِهِ الهِجْرَةِ إلى المَدينَةِ فَقَدِ ارتَحَلَ الحَيُّ كُلُّهُ : الرِّجالُ وَالنِّساءُ ، الشُّيوخُ وَالشَّبابُ ، الصِّبْيانُ والصَّبِيّاتُ ؛ لأَنَّ حَيَّهُ كُلَّهُ كانَ حَيَّ إِسْلامٍ ، وَقَبيلَتَهُ قَبيلَةُ إِيمانٍ .

وَأَقْفَرَتْ دِيارُ بَني جَحْشٍ مِنْ ساكِنيها ، وَراحَتْ تَضْرِبُها الرِّياحُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَغَدَتِ البُيوتُ حَزينَةً كَئيبَةً ، كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِها مِنْ قَبْلُ أَنيسٌ وَلا ساكِنٌ .

وَمَرَّ بِها بَعْضُ شُيوخِ قُرَيْشٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ خالِيَةٌ ، وَكانوا قَدْ خَرَجوا يَتَعَرَّفونَ مَنْ رَحَلَ مِنْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ لَمْ يَرْحَلْ - مَرّوا بِها فَقالَ واحِدٌ مِنْهُمْ :

« أَصْبَحَتْ دِيارُ بَني جَحْشٍ خَواءً تَبْكي مَنْ بَناها . »

فَقالَ لَهُ صاحِبُهُ : « وَمَنْ هُمْ حَتَّى تَبْكِيَ عَلَيْهِمُ الدِّيارُ ؟ »

قالَ ثالِثُهُمْ : « هَذا عَمَلُ مُحَمَّدٍ ! فَرَّقَ الجَماعَةَ ، وَشَتَّتَ شَمْلَها . »

وَعَدا أَبو سُفْيانَ عَلى دارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ - وَكانَتْ أَحْسَنَ الدُّورِ وَأَفْضَلَها - وَجَعَلَ يَتَصَرَّفُ فيها وَفي مَتاعِها تَصَرُّفَ المالِكِ في مُلْكِهِ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللهِ فَضاقَتْ بِهِ نَفْسُهُ ، وَذَكَرَهُ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، فَقالَ لَهُ : « أَما يُرْضيكَ أَنْ يُبْدِلَكَ اللهُ دارًا خَيْرًا مِنْها في الجَنَّةِ ؟ »

فَقالَ عَبْدُ اللهِ : « بَلى ، يُرْضيني ذَلِكَ ، يا رَسولَ اللهِ . »

وَقَرَّتْ بِذَلِكَ عَيْنُهُ ، وَطابَتْ بِهِ نَفْسُهُ .

* * *

وَلَمْ يَكَدْ « عَبْدُ اللهِ » يَتَذَوَّقُ طَعْمَ الرّاحَةِ في المَدينَةِ ، وَيَنْعَمُ بِالأَمانِ في كَنَفِ الأَنْصارِ ، حَتّى دَعا داعي الجِهادِ ، وَتَعَرَّضَ « عَبْدُ اللهِ » لأَقْسى امْتِحانٍ صادَفَهُ في حَياتِهِ .

لَقَدْ أَرادَ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ مَنْ يَتَرَصَّدُ لَهُ أَمْرَ قُرَيْشٍ ،

وَيَتعَرَّفُ أنْباءَها ، وَيَأتيهِ بِأخْبارِها ، فَدَعا ثَمانِيَةً مِنْ أصْحابِهِ المُهاجِرينَ ، لِلْقِيامِ بِأوَّلِ عَمَلٍ عَسْكَرِيٍّ في تاريخِ الدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ ، فيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقّاصٍ ، وَقالَ لَهُمْ : « لأبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رَجُلاً ، هُوَ أصْبَرُكُمْ عَلى الجوعِ وَالعَطَشِ . »

ثُمَّ عَقَدَ لِواءَهُمْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ ، فَكانَ أوَّلَ لِواءٍ عُقِدَ في الإسْلامِ ، وَكانَ عَبْدُ اللهِ أوَّلَ مَنْ دُعِيَ « أميرَ المُؤْمِنينَ » .

وَعَيَّنَ الرَّسولُ القائِدُ لِعَبْدِ اللهِ وِجْهَتَهُ ، وَكَتَبَ لَهُ كِتابًا ، وَأمَرَهُ ألا يَنْظُرَ فيهِ إلا بَعْدَ مَسيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنَ المَدينَةِ .

انْقَضى اليَوْمانِ عَلى مَسيرَةِ كَتيبَةِ اللهِ ، فَوَقَفَ « عَبْدُ اللهِ » وَنَظَرَ في كِتابِ رَسولِ اللهِ ، فإذا فيهِ :

« إذا نَظَرْتَ في كِتابي هَذا فامْضِ إلى نَخْلَةَ (مَكان) بَيْنَ الطّائِفِ وَمَكَّةَ - فَتَرَصَّدْ بِها قُرَيْشًا ، وَقِفْ لَنا عَلى أخْبارِهِمْ . »

أخْبَرَ الأميرُ عَبْدُ اللهِ سَرِيَّتَهُ بِما في كِتابِ الرَّسولِ القائِدِ ، وَأعْلَنَ إلَيْهِمْ أنَّ الرَّسولَ القائِدَ أمَرَهُ ألا يَسْتَكْرِهَ مِنْهُمْ أحَدًا ، فَمَنْ كانَ يَرْغَبُ في الشَّهادَةِ فَلْيَمْضِ مَعَهُ ، وَمَنْ كانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ غَيْرَ مَذْمومٍ .

فَقالوا جَميعًا : « سَمْعًا وَطاعَةً ، امْضِ لِما أمَرَكَ الرَّسولُ ﷺ بِهِ ، وَنَحْنُ مَعَكَ . »

سارَتْ كَتيبَةُ اللهِ ، تَحوطُها رِعايَتُهُ ، وَتَحْميها عِنايَتُهُ ، حَتَّى بَلَغَتِ المَوْضِعَ الَّذي حَدَّدَهُ لَها الرَّسولُ القائِدُ ، فَنَزَلَتْ هُناكَ ، وَأخَذَتْ تَجوسُ خِلالَ الدُّروبِ ، تَتَرَصَّدُ أخْبارَ قُرَيْشٍ وَتَجَمُّعُها ؛ لِتُبْلِغَها إلى الرَّسولِ القائِدِ ﷺ .

وَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ أبْصَروا قافِلَةً صَغيرَةً لِقُرَيْشٍ ، فيها أرْبَعَةُ رِجالٍ وَتَحْمِلُ تِجارَةً مِنَ الجُلودِ وَالزَّبيبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

جَلَسَ المُسْلِمونَ يَتَشاوَرونَ :

« إنْ هاجَمْنا هَذِهِ القافِلَةَ ، وَاسْتَوْلَيْنا عَلى ما تَحمِلُ مِنْ عُروضِ التِّجارَةِ ، وَقَتَلْنا مَنْ فيها مِنَ الرِّجالِ - فَإنَّ قُرَيْشًا سَتَقولُ : ‹‹ إنَّ المُسْلِمينَ أهْدَروا حُرْمَةَ الأشْهُرِ الحُرُمِ . ›› وَإنْ تَرَكْناها تَمْضي في طَريقِها فَستَدْخُلُ الحَرَمَ المَكِّيَّ ، وَتَعْتَصِمُ بِهِ مِنّا ؛ إذْ لا قِتالَ فيهِ . »

وَجَدَتِ السَّرِيَّةُ المُسْلِمَةُ نَفْسَها في حَيْرَةٍ ؛ فَقَدْ كانَ اليَوْمُ آخِرَ أيّامِ شَهْرِ رَجَبٍ ، وَهُوَ آخِرُ الأشْهُرِ الحُرُمِ ، الَّتي يوضَعُ فيها القِتالُ ، وَيَأْمَنُ النّاسُ فيها عَلى دِمائِهِمْ وَأمْوالِهِمْ ، وَهِيَ الشُّهورُ الَّتي يُعَظِّمُها العَرَبُ جَميعًا ، وَفيها يَكونُ مَوْسِمُ الحَجِّ ، وَهِيَ شُهورُ : ذي القَعْدَةِ ، وَذي الحِجَّةِ ، والمُحَرَّمِ ، وَرَجَب .

وَبَعْدَ تَفْكيرٍ طَويلٍ ، وَمُناقَشاتٍ مُسْتَفيضَةٍ ، اسْتَقَرَّ الرَّأيُ عَلى مُهاجَمَةِ القافِلَةِ ، فَأصابوا واحِدًا مِنْ رِجالِها بِسَهْمٍ فَقَتَلوهُ ، وَأسَروا اثْنَيْنِ ، وَفَرَّ الرّابِعُ ، واحْتازوا ما كانَ فيها مِنْ مالٍ وَمَتاعٍ ، وَعادوا بِالأسْرى وَالغَنائِمِ إلى

المَدينَةِ فَرِحينَ !

قَدِمَ « عَبْدُ اللهِ » وَرِفاقُهُ يَسوقونَ الأسيرَيْنِ وَالغَنائِمَ ، فَلَمّا عَرَفَ الرَّسولُ ﷺ ما فَعَلوهُ اسْتَنْكَرَهُ اسْتِنْكارًا شَديدًا ، وَأوْقَفَ الأسيرَيْنِ ، وَأبى أنْ يَنالَ مِنَ الغَنيمَةِ شَيْئًا ، وَقالَ لَهُمْ :

« ما أمَرْتُكُمْ بِقِتالٍ ، وَلَكِنْ أمَرْتُكُمْ أنْ تَتَرَصَّدوا قُرَيْشًا ، وَأنْ تَتَعَرَّفوا أخْبارَها ، وَتَأْتوني بِها . »

عِنْدَئِذٍ نَدِموا عَلى فَعْلَتِهِمْ ، وَضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِما رَحُبَتْ ، وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أنْفُسُهُمْ ! وَزادَ في ألَمِهِمْ شُعورُهُمْ بِما أوْقَعوا الرَّسولَ ﷺ فيهِ مِنْ حَرَجٍ ، وَأنَّ إخْوانَهُمْ كانوا يُعْرِضونَ عَنْهُمْ ، وَيَقولونَ : « خالَفوا أمْرَ رَسولِ اللهِ ﷺ . »

كَما أنَّ المُشْرِكينَ اتَّخَذوا هَذا الأمْرَ ذَريعَةً لِلتَّشْنيعِ عَلى الرَّسولِ الكَريمِ ، وَالتَّشْكيكِ فيما يَدْعو إلَيْهِ مِنْ قِيَمٍ وَمَبادِئَ ، فَقَدْ أخَذوا يُذيعونَ بَيْنَ العَرَبِ :

« إنَّ مُحمَّدًا قدْ أهْدَرَ الأشْهُرَ الحُرُمَ ، فَسفَكَ فيها الدِّماءَ ، وَاحْتازَ المالَ ، وأسرَ الرِّجالَ . »

لَقَدْ كانَتْ مِحْنَةً قاسِيَةً عَلى « عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ » وَصَحْبِهِ ، وَكانَ ابْتِلاءً شَديدًا ، وَلَكِنَّهُ أسْفَرَ عَنْ حَقيقَةٍ وَضّاءَةٍ ناصِعَةٍ ؛ فَقَدْ جاءَ الفَرَجُ بَعْدَ الضِّيقِ ، وَأنْزَلَ اللهُ في ذَلِكَ قُرْآنًا يُتْلى ، يُبَرِّئُ ساحَتَهُمْ ، وَيُبارِكُ صَنيعَهُمْ فَجاءَهُمْ البَشيرُ يُعْلِنُ إلَيْهِمْ قَوْلَ اللهِ (عَزَّ وَ جَلَّ) :

﴿ يَسْألونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحَرامِ قِتالٍ فيهِ قُلْ قِتالٌ فيهِ كَبيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرامِ وَإخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أكْبَرُ مِنَ القَتْلِ . . ﴾

فَصَدَحَتْ أنْغامُ الفَرْحَةِ في صُدورِهِمْ ، وَأقْبَلَ عَلَيْهِمُ المُسْلِمونَ مُهَنِّئينَ مُعانِقينَ ، وَطابَتْ نَفْسُ الرَّسولِ ﷺ وَرَضِيَتْ ، وَزادَ في رِضاهُ وَرِضا المُسْلِمينَ أنَّ أحَدَ الأسيرَيْنِ (الحَكَمَ بْنَ كيسانَ) دَخَلَ في الإسْلامِ .

لَقَدْ كانَ صَنيعُ هَذِهِ السَّرِيَّةِ حَدَثًا كَبيرًا في تاريخ

الإسْلامِ ؛ فَغَنيمَتُها أوَّلُ غَنيمَةٍ يَغْنَمُها المُسْلِمونَ مِنَ المُشْرِكينَ ، وَقَتيلُها أوَّلُ مُشْرِكٍ أراقَ المُسْلِمونَ دَمَهُ ، وَأسيراها أوَّلُ أسيرَيْنِ ، وَلِواؤُها أوَّلُ لِواءٍ يَعْقِدُهُ الرَّسولُ بِيَدَيْهِ الشَّريفَتَيْنِ ، وَأميرُها « عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ » أوَّلُ مَنْ دُعِيَ « أميرَ المُؤْمِنينَ » .

* * *

وَجاءَ الصِّدامُ العَسْكَرِيُّ المُسَلَّحُ بَيْنَ المُسْلِمينَ وَالمُشْرِكينَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، فَأبْلى « عَبْدُ اللهِ » في الدِّفاعِ عَنْ حَوْزَةِ الإسْلامِ بَلاءً حَسَنًا ، وَعادَ مُنْتَصِرًا مَعَ المُنْتَصِرينَ . ثُمَّ جاءَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ ، فَكانَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ وَصاحِبِهِ سَعْدِ بْنِ أبي وَقّاصٍ مَوْقِفٌ سَجَّلَهُ التّاريخُ ، وَسَيَظَلُّ يَذْكُرُهُ عَلى مَرِّ العُصورِ .

يَقولُ سَعْدٌ (رضي الله عنه) : « لَمّا كانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ لَقِيَني عَبْدُ اللهِ فَقالَ لي : ‹‹ ألا تَدْعو اللهَ ؟ ››

« فَقُلْتُ : ‹‹ بَلى ! ››

« قالَ : ‹‹ هَلُمَّ بِنا إلى ذَلِكَ المَكانِ الخالي نُناجي رَبَّنا . ››

« فَذَهَبْنا إلَيْـهِ ، وَدَعَـوْتُ دَعْـوَتي ، وَهُوَ يُؤَمِّنُ عَلى دُعائي . قُلْتُ :

« ‹‹ يا رَبِّ ، إذا لَقيتُ العَدُوَّ فَلَقِّني رَجُلاً شَديدَ الحَرَدِ (الغَـضَبِ وَالغَـيْظِ) أُقاتِلُهُ وَيُقـاتِلُني ، ثُمَّ ارْزُقْني الظَّفَرَ عَلَيْهِ ، حَتَّى أَقْتُلَهُ ، وَآخُذَ سَلَبَهُ (ما عَلَيْهِ مِنْ ثِيابٍ وَما مَعَهُ مِنْ سِلاحٍ) . ››

« ثُمَّ دَعا عَبْدُ اللهِ فَقالَ : ‹‹ اللَّهُمَّ ارْزُقْني رَجُلاً شَديداً بَأْسُهُ ، شَديداً حَرَدُهُ ، أُقاتِلُهُ فيكَ وَيُقاتِلُني ، ثُمَّ يَأْخُذُني ، فَيَجْدَعُ أَنْفي وَأُذُني ، فَإذا لَقيتُكَ غَداً قُلْتَ :

« ‹‹ فيمَ جُدِعَ أَنْفُكَ وَأُذُنُكَ ؟ ››

« فَأُجيبُ : ‹‹ فيكَ وَفي رَسولِكَ . ››

« فَتَقولُ يا رَبِّ : ‹‹ صَدَقْتَ . ›› »

يَقولُ سَعْدٌ : « لَقَدْ كانَتْ دَعْوَةُ عَبْدِ اللهِ خَيْراً مِنْ

دَعْوَتي . لَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهارِ ، وَقَدْ قُتِلَ . وَمُثِّلَ بِهِ ، وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقانِ بِخَيْطٍ في شَجَرَةٍ ! »

دَعا « عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ » رَبَّهُ ، فاسْتَجابَ لَهُ ، وَلَقِيَ رَبَّهُ شَهيداً ، وَعُمْرُهُ يُناهِزُ الثّانِيَةَ وَالأَرْبَعينَ ، وَدُفِنَ مَعَ خالِهِ « حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ » في قَبْرٍ واحِدٍ .

كانَ سَعيدُ بْنُ المُسَيَّبِ - إمامُ التّابِعينَ - يَخْتِمُ قِصَّةَ الفارِسِ المُجَدَّعِ بِقَوْلِهِ « أَرْجو أَنْ يَبَرَّ اللهُ آخِرَ قَسَمِهِ كَما بَرَّ أَوَّلَهُ ! »

فَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ القِسْمَ الأَوَّلَ مِنْ دُعائِهِ ، وَقُطِعَ أَنْفُهُ وَأُذُنُهُ ، وَالرَّجاءُ أَنْ يَسْتَجيبَ اللهُ القِسْمَ الآخَرَ مِنْهُ ، فَيَرْزُقَهُ الثَّوابَ الجَزيلَ ، وَيَجْعَلَهُ مَعَ الصِّدّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالنَّبِيّينَ ، وَحَسُنَ أولَئِكَ رَفيقاً .

حديقةُ الموْتِ

تَراهُ فترى رَجُلاً نحيفَ الجِسْمِ ، قَليلَ اللَّحْمِ ، مَعْروقَ اليَدَيْنِ ، بارزَ العِظامِ ، دَقيقَ التَّكْوينِ ، أَشْعَثَ الشَّعْرِ ، يُخَيَّلُ إلَيْكَ أَنَّهُ قادِمٌ مِنْ سَفَرٍ بَعيدٍ ! وَلَكِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى الصُّوَرِ وَالأَجْسامِ ، وَإنَّما يَنْظُرُ إلى القُلوبِ وَما يَعْمُرُها مِنْ إيمانٍ ، وَما يُثْمِرُ هَذا الإيمانُ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ ، يَنْفَعُ النّاسَ أَجْمَعينَ .

لَقَدْ عَمَرَ الإيمانُ قَلْبَهُ ، وَخالَطَتْهُ بَشاشَتُهُ ، وَتَذَوَّقَ حَلاوَتَهُ ، فَتَقَرَّبَ إلى رَبِّهِ ، وَصَبَرَ عَلى تَكاليفِ الطّاعَةِ وَمَشَقّاتِها ، حَتَّى يَسَّرَها اللهُ لَهُ ، وَأَعانَهُ عَلَيْها ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لَها ، حَتَّى قالَ الرَّسولُ الكَريمُ فيهِ :

« إنَّهُ مِنَ الرِّجالِ الَّذينَ إذا أَقْسَموا عَلى اللهِ أَبَرَّهُمْ . »

أي : اسْتَجابَ دُعاءَهُمْ ، وَحَقَّقَ لَهُمْ رَجاءَهُمْ .

وَلَمْ تَمْنَعْهُ نَحافَةُ جِسْمِهِ ، وَضَآلَةُ حَجْمِهِ ، وَقِلَّةُ لَحْمِهِ مِنْ أنْ يَكونَ فارِسًا شُجاعًا ، وَبَطَلاً مِغْوارًا ، بَلْ لَعَلَّها كانَتْ عَوْنًا كَريمًا لَهُ عَلى اقْتِحامِ المَخاطِرِ ، وَالإقْدامِ الجَريءِ ، فَقَتَلَ مائَةً مِنَ المُشْرِكينَ مُبارَزَةً وَحْدَهُ ، عَدا مَنْ شارَكَ في قَتْلِهِمْ في المَعارِكِ مَعَ المُحارِبينَ ، حَتَّى كَتَبَ أَميرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ إلى الوُلاةِ وَالعُمّالِ ألا يُوَلُّوا « البَراءَ بْنَ مالِكٍ » عَلى جَيْشٍ مِنْ جُيوشِ المُسْلِمينَ ؛ خَشْيَةَ أنْ يُهْلِكَهُ بِإقْدامِهِ الجَسورِ .

وَ « البَراءُ بْنُ مالِكٍ » صَحابِيٌّ أَنْصارِيٌّ مِنَ الخَزْرَجِ ، وَهُوَ أَخو « أَنَسِ بْنِ مالِكٍ » الَّذي حَظِيَ بِخِدْمَةِ الرَّسولِ ﷺ ، وَقَدْ خاضَ المَعارِكَ كُلَّها ، وَشَهِدَ المَشاهِدَ جَميعَها ، وَهُوَ يَرْجو أنْ يَرْزُقَهُ اللهُ الشَّهادَةَ في سَبيلِهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ - جَلَّتْ حِكْمَتُهُ - كانَ يَدَّخِرُهُ لِيَوْمٍ تَقْشَعِرُّ فيهِ الأَبْدانُ ، وَيَشيبُ مِنْ هَوْلِهِ الوِلْدانُ ، وَيَحْتاجُ الإسْلامُ فيهِ لِجَسارَتِهِ وَإقْدامِهِ ، وَسُرْعَةِ نَفاذِهِ مِنَ المَهالِكِ . كانَ ذَلِكَ يَوْمَ

« حَدِيقَةِ المَوْتِ » !

* * *

فَحِينَ انْتَقَلَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ إلى بارِئِهِ ، أَخَذَتِ القَبائِلُ العَرَبِيَّةُ تَخْرُجُ عَلى « أَبي بَكْرٍ » خَليفَتِهِ ، وَتُعْلِنُ العِصْيانَ ، وَتَرْتَدُّ (تَكْفُرُ) عَنِ الإِسْلامِ . وَإِذا كانَ بَعْضُ الرِّجالِ قَدِ ادَّعَوُا النُّبُوَّةَ في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ ؛ حِقْدًا عَلَيْهِ ، وَحَسَدًا لَه - فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ قَدِ اسْتَشْرَتْ بَعْدَ وَفاتِهِ ، وَ وَجَدَتْ مِنَ القَبائِلِ مَنْ يَتَعَصَّبُ لَها ، وَيُدافِعُ عَنْها ، خاصَّةً وَقَدْ أَسْقَطَتْ عَنْهُمُ التَّكاليفَ الإِسْلامِيَّةَ ، وَأَباحَتْ لَهُمْ ما كانَ الإِسْلامُ قَدْ مَنَعَهُ وَحَرَّمَهُ ؛ حَتَّى كادَ الإِسْلامُ يُحْصَرُ في مَكَّةَ وَالمَدينَةِ وَالطّائِفِ !

وَلَكِنَّ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه ثَبَتَ لِهَذِهِ المِحْنَةِ ، وَجابَهَها بِقُوَّةٍ وَحَزْمٍ ؛ فَأَعَدَّ أَحَدَ عَشَرَ جَيْشًا ، وَعَقَدَ لَهُمْ أَحَدَ عَشَرَ لِواءً ، وَسَيَّرَهُمْ إلى هَذِهِ القَبائِلِ المُرْتَدَّةِ ؛ لِيُعيدُوها إلى الطَّريقِ المُسْتَقيمِ .

وَكانَ « مُسَيْلِمَةُ الكَذّابُ » أَشَدَّ المُرْتَدِّينَ بَأْسًا ، وَأَقْواهُمْ شَكيمَةً ؛ فَقَدِ اتَّبَعَهُ قَوْمُهُ بَنو حَنيفَةَ ، اتَّبَعَهُ كَثيرٌ مِنْهُمْ عَصَبِيَّةً لا إِيمانًا ، فَكانوا يَقولونَ :

« وَاللهِ ، إِنَّ مُحَمَّدًا لَصادِقٌ ، وَإِنَّ مُسَيْلِمَةَ لَكاذِبٌ ، وَلَكِنَّ كَذّابَ رَبيعَةَ (قَبيلَةِ مُسَيْلِمَةَ) أَحَبُّ إِلَيْنا مِنْ صادِقِ مُضَرَ (قَبيلَةِ الرَّسولِ ﷺ) . »

وَاسْتَطاعَ « مُسَيْلِمَةُ الكَذّابُ » أَنْ يَجْمَعَ مِنْ قَوْمِهِ أَرْبَعينَ أَلْفًا ، مُجَهَّزينَ بِالسِّلاحِ ، مُسْتَعِدِّينَ لِلْقِتالِ . وَتَمَكَّنَ بِهِمْ مِنْ هَزيمَةِ أَوَّلِ جَيْشٍ ساقَهُ إِلَيْهِ أَبو بَكْرٍ بِقِيادَةِ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبي جَهْلٍ ، وَرَدَّهُ عَلى أَعْقابِهِ .

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَفُتَّ في عَضُدِ الخَليفَةِ ، وَلَمْ يَدْفَعِ اليَأْسَ إِلى قَلْبِهِ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ عَنْ حِلْمِهِ وَهُدوئِهِ ؛ فَسَيَّرَ إِلى « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » جَيْشًا آخَرَ ، بِقِيادَةِ سَيْفِ اللهِ المَسْلولِ « خالِدِ بْنِ الوَليدِ » حَشَدَ فيهِ وُجوهَ الصَّحابَةِ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ ، وَفي طَليعَتِهِمْ « البَراءُ بْنُ مالِكٍ

الأنْصارِيُّ » ، وَنَفرٌ مِنْ شُجْعانِ المُسْلِمينَ وَأبْطالِهِمْ .

* * *

اِشْتَعَلَ القِتالُ بَيْنَ الفَريقَيْنِ ، وَقاتَلَ بَنو حَنيفَةَ قِتالاً مُريعًا ، وَثَبَتوا لِلقِتالِ ثَباتًا مُنْقَطِعَ النَّظيرِ ، حَتَّى رَجَحَتْ كِفَّتُهُمْ ، وَشالَتْ كِفَّةُ المُسْلِمينَ ، فَأَخَذوا يَتَراجَعونَ عَنْ مَواقِعِهِمْ ، حَتَّى دَخَلَ بَعْضُ جُنودِ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » خَيْمَةَ « خالِدِ بْنِ الوَليدِ » ، وَاقْتَلَعوها مِنْ أُصولِها ، وَكادوا يَأْسِرونَ زَوْجَتَهُ لَوْلا أنْ أَجارَها وَحَماها واحِدٌ مِنْهُمْ .

نَظَرَ المُسْلِمونَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ، وَفَهِمَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَأَيْقَنوا أَنَّهُمْ إنْ هُزِموا أَمامَ جُنودِ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » فَلَنْ تَقومَ لِلإسْلامِ قائِمَةٌ بَيْنَ العَرَبِ ، وَلَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ في هَذِهِ الأَرْضِ . . عِنْدَ ذَلِكَ قَرَّ عَزْمُهُمْ عَلى الثَّباتِ وَالإقْدامِ ، حَتَّى يَنالوا إحْدى الحُسْنَيَيْنِ : النَّصْرَ أَوِ الشَّهادَةَ !

واسْتَنْفَرَ المَوْقِفُ كُلَّ ما في عَبْقَرِيَّةِ خالِدٍ الحَرْبِيَّةِ ، فَحَشَدَ كُلَّ طاقَتِهِ ، وَهَبَّ يُعيدُ تَنْظيمَ صُفوفِ جَيْشِهِ ، وَيُعَبِّئُهُ تَعْبِئَةً جَديدَةً ، فَمَيَّزَ الأَنْصارَ مِنَ المُهاجِرينَ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ طائِفَةٍ مِنْهُمْ لِواءً تُعْرَفُ بِهِ ، وَتُقاتِلُ تَحْتَهُ ، وَمَيَّزَ الباقينَ مِنَ العَرَبِ عَنْ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ ، وَجَعَلَ أَبْناءَ كُلِّ عَشيرَةٍ تَحْتَ لِواءٍ ؛ لِيُثيرَ الحَمِيَّةَ في نُفوسِهِمْ ، وَالتَّنافُسَ بَيْنَهُمْ ، حَتّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ يُؤْتَى (يُهْزَمُ) المُسْلِمونَ ، وَمَنْ يَكونُ السَّبَبَ في الهَزيمَةِ .

وَالْتَحَمَ الجَيْشانِ ، وَدارَتْ بَيْنَهُما مَعْرَكَةٌ حامِيَةٌ عَنيفَةٌ قاسِيَةٌ ، ثَبَتَ فيها أَتْباعُ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » ثَباتَ الجِبالِ الرّاسِيَةِ ، وَلَمْ يُبالوا بِما أَصابَهُمْ مِنْ جُروحٍ ، وَلا بِما حَدَثَ فيهِمْ مِنْ قَتْلٍ . وَأَبْلى المُسْلِمونَ بَلاءً حَسَنًا ، وَجاهَدوا في سَبيلِ عَقيدَتِهِمْ ، وَإعْلاءِ كَلِمَةِ رَبِّهِمْ - جِهادًا مَريرًا ، يَبْتَغونَ فَضْلَ اللهِ ، وَيَتَذَكَّرونَ أَنَّ اللهَ وَعَدَهُمْ إحْدى الحُسْنَيَيْنِ : النَّصْرَ أَوِ الشَّهادَةَ ، وَيوقِنونَ

بأنَّ اللهَ مَولاهُمْ ، وأنَّ الكافِرينَ لا مَولى لَهُمْ ، وأنَّهُمْ يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ ، وأنَّ الكافِرينَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ الشَّيْطانِ ، وأنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعيفًا . وَكانَتْ لَهُمْ بُطولاتٌ رائِعَةٌ حَقًّا ، تُنْبئُ عَنْ إيمانٍ عَميقٍ ، وَتَكْشِفُ عَنْ صِدْقِ العَقيدَةِ ، وَاليَقينِ في وَعْدِ اللهِ :

فَهَذا « ثابِتُ بْنُ قَيْسٍ » حامِلُ لِواءِ الأنْصارِ ، يَحْفِرُ حُفْرَةً في الأرْضِ ، وَيَنْزِلُ فيها إلى ساقَيْهِ ، وَيُثَبِّتُ قَدَمَيْهِ ، وَيَظَلُّ يُقاتِلُ حَتَّى يَسْقُطَ شَهيدًا !

وَهَذا « زَيْدُ بْنُ الخَطّابِ » يَصيحُ في جَيْشِ المُسْلِمينَ :

« أيُّها القَوْمُ ، عَضُّوا عَلى أضْراسِكُمْ ، واضْرِبوا في عَدُوِّكُمْ ، وامْضُوا قُدُمًا في سَبيلِ اللهِ . وَاللهِ ، لا أتَكَلَّمُ بَعْدَ هَذِهِ الكَلِمَةِ أبَدًا ، حَتَّى يُهْزَمَ « مُسَيْلِمَةُ » ، أوْ ألْقى اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) فَأُدْلي إلَيْهِ بِحُجَّتي . »

وَمَضى قُدُمًا ، يُقاتِلُ وَيَضْرِبُ بِسَيْفِهِ في رِقابِ الأعْداءِ حَتَّى خَرَّ شَهيدًا !

وَهَذا « سالِمُ مَوْلى أبي حُذَيْفَةَ » حامِلُ لِواءِ المُهاجِرينَ ، يَقولُ لَهُ بَعْضُهُمْ : « إنَّنا نَخْشى أنْ نُؤْتَى مِنْ قِبَلِكَ . »

فَيَقولُ لَهُمْ : « إنْ أوتيتُمْ مِنْ قِبَلي فَبِئْسَ حامِلُ القُرْآنِ أكونُ . »

وانْطَلَقَ يُقاتِلُ وَيَضْرِبُ ، لا يَضْعُفُ وَلا يَتَراجَعُ ، حَتَّى كَثُرَتْ في جِسْمِهِ الجِراحُ .

وَلَكِنَّ هَذِهِ البُطولاتِ الخارِقَةَ ، وَالمَلاحِمَ النّادِرَةَ تَتَضاءَلُ أمامَ صَنيعِ « البَراءِ بْنِ مالِكٍ » ؛ فَحينَ حَمِيَ وَطيسُ المَعْرَكَةِ ، واشْتَدَّ أُوارُها - الْتَفَتَ القائِدُ « خالِدُ ابْنُ الوَليدِ » إلى « البَراءِ » وَقالَ لَهُ : « إلَيْهِمْ ، يا فَتى الأنْصارِ . »

وَنَظَرَ « البَراءُ » إلى الأنْصارِ مِنْ حَوْلِهِ ، وَقالَ لَهُمْ : « لا يُفَكِّرَنَّ أحَدٌ مِنْكُمْ في العَوْدَةِ إلى المَدينَةِ ، فَلا مَدينَةَ لَكُمْ بَعْدَ اليَوْمِ ، وَإنَّما هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، ثُمَّ الجَنَّةُ . »

وَكَرَّ على الأعْداءِ كَرَّةً باسِلَةً ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَمْلَةً صادِقَةً ، وَحَمَلَ مَعَهُ المُسْلِمونَ ، وَطَفِقَ يَشُقُّ صُفوفَهُمْ ، وَيُعْمِلُ السَّيْفَ في رِقابِهِمْ ، وَالمُسْلِمونَ مَعَهُ ، يَفْعَلونَ فِعْلَهُ ، وَيَصْنَعونَ صُنْعَهُ ، حَتَّى زُلْزِلَتْ أقْدامُ « مُسَيْلِمَةَ » وَجَيْشِهِ ، فالْتَجَئُوا إلى الحَديقَةِ الَّتي وَسَمَها التّاريخُ بِاسْمِ « حَديقَةِ المَوْتِ » لِكَثْرَةِ مَنْ قُتِلَ فيها .

* * *

كانَتْ « حَديقَةُ المَوْتِ » واسِعَةَ الأرْجاءِ ، عالِيَةَ الجُدْرانِ ، مَحوطَةً بِسورٍ مَنيعٍ ، اخْتَزَنَ فيها « مُسَيْلِمَةُ » الكَثيرَ مِنَ المَئونَةِ وَالسِّلاحِ ، فَلاذَ بِها وَمَعَهُ البَقِيَّةُ الباقِيَةُ مِنْ جُنودِهِ ، وَهُمْ كَثْرَةٌ بالِغَةٌ ، وَتَحَصَّنوا بِجُدْرانِها السّامِقَةِ ، وَراحوا يُمْطِرونَ المُسْلِمينَ وابِلاً مِنَ السِّهامِ وَالنِّبالِ ، وَالمُسْلِمونَ يَقِفونَ أمامَ السُّورِ المَنيعِ ، وَالجُدْرانِ العالِيَةِ ، لا يَسْتَطيعونَ شَيْئًا .

وَإذا الفِكْرَةُ تَنْقَدِحُ في ذِهْنِ « البَراءِ » ، وَيَعْرِضُها عَلى

القائِدِ « خالِد » وَيُصِرُّ « البَراءُ » عَلى تَنْفيذِها . يَطْلُبُ « البَراءُ » إلى جُنودِ المُسْلِمينَ أنْ يَضَعوهُ فَوْقَ تُرْسٍ ، ثُمَّ يَحْمِلوا هَذا التُّرْسَ عَلى رِماحِهِمْ ، فَهُوَ لا يُكَلِّفُهُمْ مَشَقَّةً وَلا جُهْدًا في حَمْلِهِ ؛ إذْ هُوَ نَحيفُ الجِسْمِ ، قَليلُ اللَّحْمِ ، ضَئيلُ التَّكْوينِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَقْذِفونَهُ مِنْ فَوْقِ سورِ الحَديقَةِ ، قَريبًا مِنْ أحَدِ أبْوابِها ، فَإمّا أنْ يُقاتِلَهُمْ حَتَّى يَفْتَحَ البابَ ، وَإمّا أنْ يَلْقَى اللهَ شَهيدًا !

وَفي سُرْعَةِ البَرْقِ الخاطِفِ جَلَسَ « البَراءُ » فَوْقَ التُّرْسِ ، وَرَفَعَتْهُ عَشَراتُ الرِّماحِ ، وَقَذَفَتْ بِهِ بَيْنَ جُنودِ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » ، فَوَقَعَ عَلَيْهِمْ وُقوعَ الصّاعِقَةِ المُهْلِكَةِ ؛ فَأذْهَلَتْهُمُ المُفاجَأةُ ، وَأدْهَشَتْهُمُ الجُرْأةُ ، فَشُلَّتْ أيْديهِمْ . وَلَكِنْ سَرْعانَ ما أفاقوا مِنَ الدَّهْشَةِ ، وَخَرَجوا مِنَ الذُّهولِ ، وَهُمْ يَرَوْنَهُ يُعالِجُ البابَ لِيَفْتَحَهُ ؛ فانْقَضّوا عَلَيْهِ ، يُحاوِلونَ قَتْلَهُ . واسْتَدارَ « البَراءُ » نَحْوَهُمْ يَضْرِبُ في رِقابِهِمْ بِسَيْفِهِ ، وَيَصُدُّ سُيوفَهُمْ بِتُرْسِهِ ، وَيُعالِجُ فَتْحَ

الباب ، حَتّى استَجابَ لَهُ ؛ فَتَدَفَّقَ المُسْلِمونَ مِنْهُ ، واعْتلى بَعْضُهُمُ الأسْوارَ ، وَراحوا يُعْمِلونَ سُيوفَهُمْ في رِقابِ جَيْشِ « مُسَيْلِمَةَ » حَتّى قَتَلوا مِنْهُمْ عِشْرينَ أَلْفًا ، وَأَدْرَكوا « مُسَيْلِمَةَ » وَهُوَ يُحاوِلُ الفِرارَ فَأَرْدَوْهُ قَتيلاً .

خَرَجَ البَطَلُ المِغْوارُ « البَراءُ بْنُ مالِكٍ الأَنْصارِيُّ » مِنَ المَعْرَكَةِ ، وَقَدْ أَثْخَنَتْهُ الجِراحُ ، الَّتي أَرْبَتْ عَلى الثَّمانينَ ، ما بَيْنَ ضَرْبَةِ سَيْفٍ ، وَطَعْنَةِ رُمْحٍ . وَمَكَثَ القائِدُ « خالِدُ ابْنُ الوَليدِ » شَهْرًا ، يُداوي جِراحَ « البَراءِ » ، وَيُشْرِفُ عَلى عِلاجِهِ ، حَتّى مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالشِّفاءِ ، وَفاتَتْهُ الشَّهادَةُ الَّتي كانَ يَرْجو أَنْ يَلْقاها في سَبيلِ اللهِ .

* * *

لَبِثَ « البَراءُ بْنُ مالِكٍ » زَمَنًا طَويلاً ، يَخوضُ المَعارِكَ ، وَيَشْهَدُ المَواقِعَ ، وَيَتوقُ إِلى الشَّهادَةِ في سَبيلِ اللهِ ، حَتّى كانَ يَوْمُ « تُسْتَر » في بِلادِ الفُرْسِ ، في عَهْدِ الخَليفَةِ عُمَرَ ابْنِ الخَطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقَدِ انْكَشَفَ المُسْلِمونَ ، فَقالوا لَهُ :

« يا بَراءُ ، أَقْسِمْ عَلى رَبِّكَ لِيَنْصُرَنّا عَلى عَدُوِّنا . »

فَرَفَعَ « البَراءُ » وَجْهَهُ إِلى رَبِّهِ ، وَدَعاهُ في ضَراعَةٍ وَخُشوعٍ ، قائِلاً :

« أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يا رَبِّ إِلا مَكَّنْتَنا مِنْهُمْ ، وَأَلْحَقْتَني بِنَبِيِّكَ ﷺ . »

وَكانَ الفُرْسُ قَدْ حَصَّنوا أَنْفُسَهُمْ في هَذِهِ المَدينَةِ تَحْصينًا قَوِيًّا ، واشْتَدَّ حِصارُ المُسْلِمينَ لَهُمْ ، وَضاقَتْ نُفوسُ الفُرْسِ بِالحِصارِ ، فَقَدْ كادَتْ تَنْفَدُ مُؤونَتُهُمْ ، فَعَمَدوا إِلى سَلاسِلَ طَويلَةٍ ، يُدْلونَها مِنْ فَوْقِ السّورِ ، وَقَدْ جَعَلوا في أَسْفَلِها كَلاليبَ مُحَمّاةً بِالنّارِ ، فَإِذا عَلِقَ واحِدٌ مِنْ هَذِهِ الكَلاليبِ بِجُنْدِيٍّ مِنَ المُسْلِمينَ رَفَعوهُ إِلَيْهِمْ ، وَهُوَ بَيْنَ المَوْتِ وَالحَياةِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ فارَقَ الحَياةَ .

وَذاتَ مَرَّةٍ نَشِبَ واحِدٌ مِنْ هَذِهِ الكَلاليبِ بِأَنَسِ بْنِ مالِكٍ ، الَّذي حَظِيَ بِخِدْمَةِ الرَّسولِ ﷺ عَشْرَ سَنَواتٍ ،

وَهُوَ أخو البَراءِ . وَما إنْ رَآهُ « البراءُ » كَذَلِكَ حَتَّى وَثَبَ
عَلى جِدارِ السُّورِ ، وَأَمْسَكَ بِالسِّلْسِلَةِ الَّتي تَحْمِلُ أخاهُ ،
وَطَفِقَ يُعالِجُ الكُلابَ لِيُخْرِجَهُ مِنْ جَسَدِ أخيهِ ، وَأَخَذَتْ
يَدُهُ تَحْتَرِقُ ، وَيَتَصاعَدُ مِنْها الدُّخانُ ، فَلَمْ يُعِرْها
اهْتِمامًا ، بَلْ ظَلَّ يَعْمَلُ بِجِدٍّ وَدَأَبٍ حَتَّى نَجَحَ فيما أرادَ ،
وَأَنْقَذَ أخاهُ ، وَهَبَطَ إلى الأرْضِ ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ يَدُهُ
عِظامًا عارِيَةً مِنَ اللَّحْمِ .

وَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ دُعاءَ « البَراءِ » فَمَنَحَ المُسْلِمينَ أكْتافَ
الفُرْسِ ، وَأَجْرى النَّصْرَ عَلى أيْديهِمْ ، وَرَزَقَهُ اللهُ
الشَّهادَةَ الَّتي كانَتْ نَفْسُهُ تَهْفو إلَيْها ، في العامِ العِشْرينَ
مِنَ الهِجْرَةِ ، حَيْثُ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ الأبْرارِ .

الباحِثُ عَنِ الحقِّ

أنفقَ شَبابَهُ ، وَصَدْرَ كُهولَتِهِ باحِثًا عَنِ الحَقيقَةِ ، فَلَمّا
بَلَغَها لَزِمَها وَلَمْ يَبْرَحْها لَحْظَةً ، وَلَمْ يَنْحَرِفْ عَنْها قِيْدَ
أُنْمُلَةٍ .

نَشَأَ في بيئَةٍ مُتْرَفَةٍ ، بَسَطَ اللهُ لَها في الرِّزْقِ ، وَأَفاءَ
عَلَيْها مِنَ المالِ الكَثيرِ ، وَيَسَّرَ لَها سَبيلَ العِزِّ والجاهِ ؛
فَقَدْ كانَ أبوهُ رَئيسَ قَرْيَةِ « جيّ » الفارِسِيَّةِ ، وَهُوَ
الاسْمُ الأوَّلُ لِمَدينَةِ « أصبَهانَ » الَّتي تُعْرَفُ الآنَ باسْمِ
« شَهْرَسْتانَ » ، وَكانَ يَمْتَلِكُ ضَيْعَةً واسِعَةً ، تُدِرُّ عَلَيْهِ
مالاً وَفيرًا .

وَكانَ يُحِبُّ وَلَدَهُ « سَلْمانَ » حُبًّا جَمًّا ، وَيُبالِغُ في
رِعايَتِهِ مُبالَغَةً شَديدَةً ، يَخْشى أنْ يَقْرَبَهُ سوءٌ ، أوْ يُلِمَّ بِهِ
مَكْروهٌ ، فَلا يَأْذَنُ لَهُ بِمُبارَحَةِ الدّارِ إلا قَليلاً ، وَفي رِعايَةِ

دَقيقَةٍ ، وَلا يَسْمَحُ لَهُ بِمُخالَطَةِ الآخَرينَ إلا في حُضورِهِ ؛ كَيْ لا يَفْسُدَ ذَوْقُهُ ، وَلا تَبْلُغَ سَمْعَهُ بَعْضُ الكَلِماتِ الَّتي لا يَنْبَغي لَها أنْ تُصافِحَ آذانَ السّادَةِ الأشْرافِ .

وَتَفَرَّغَ « سَلْمانُ » لِلْعِبادَةِ عَلى دينِ المَجوسِيَّةِ ، الَّذي يَدينُ بِهِ قَوْمُهُ، واجْتَهَدَ فيها ما وَسِعَهُ الاجْتِهادُ ، وَبَذَلَ مِنْ طاقَتِهِ فيها ما اسْتَطاعَ ؛ إذ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبيلٌ إلا إلَيْها ، حَتَّى بَلَغَ فيها مَبْلَغًا عَظيمًا ، فَصارَ قَيِّمَ (راعي) النّارِ الَّتي يَعْبُدونَها ، يُعْنى بِرِعايَتِها ، وَيَحْرِصُ عَلى أنْ تَظَلَّ دائِمًا مُشْتَعِلَةً ، لا يَخْبو أُوارُها ، وَلا يَنْطَفِئُ لَهيبُها .

وَذاتَ يَوْمٍ شُغِلَ والِدُهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَذْهَبَ إلى الضَّيْعَةِ لِرِعايَتِها، فَطَلَبَ مِنْ « سَلْمانَ » أنْ يَذْهَبَ إلَيْها يَتَفَقَّدُ أحْوالَها، وَيَضْبِطُ أُمورَها، وَيُعْنى بِشَأنِها .

وَكانَتْ فَرْحَةُ « سَلْمانَ » بالِغَةً ، فَخَرَجَ مُسْرِعًا كَأنَّما نَشِطَ مِنْ قَيْدٍ ، وَراحَ يَفْتَحُ صَدْرَهُ لِهَواءِ الطَّريقِ ، يَعُبُّهُ

عَبًّا ، وَيُجيلُ نَظَرَهُ في النّاسِ ، يَتَصَفَّحُ وُجوهَهُمْ كَأنَّما تَقَعُ عَيْناهُ لأوَّلِ مَرَّةٍ عَلى الآخَرينَ .

وَبَيْنَما هُوَ في الطَّريقِ تَناهى إلى سَمْعِهِ صَوْتُ ناقوسٍ يَدُقُّ ، فَأعارَهُ سَمْعَهُ ، وَأصْغى إلَيْهِ ، ثُمَّ انْعَطَفَ نَحْوَهُ ، وَمَضى عَلى هَدْيِ صَوْتِهِ ، فَإذا هُوَ أمامَ كَنيسَةٍ عَظيمَةٍ ، وَإذا فيها قَوْمٌ يُصَلّونَ . راقَهُ مَنْظَرُهُمْ ، وَأعْجَبَهُ سَمْتُهُمْ ، فَوَقَفَ غَيْرَ بَعيدٍ مِنْهُمْ ، يَنْظُرُ إلَيْهِمْ ، وَيَنْتَظِرُ فَراغَهُمْ مِنْ صَلاتِهِمْ .

وَما إنْ أنْهَوْا صَلاتَهُمْ ، وَأخَذَتْ تَتَفَرَّقُ جَماعَتُهُمْ - حَتَّى تَقَدَّمَ مِنْ رَئيسِهِمْ ، وَأنْشَأَ يَسْألُهُ عَمّا رَآهُ ، وَيُناقِشُهُ في مَعْناهُ وَفَحْواهُ ، وَظَلَّ كَذَلِكَ حَتَّى آذَنَتِ الشَّمْسُ بِالمَغيبِ . لَمْ يَذْهَبْ إلى الضَّيْعَةِ كَما كَلَّفَهُ أبوهُ ، وَلَمْ يَعُدْ إلى الدّارِ لِيُعْنى بِالنّارِ الَّتي وُكِلَ إلَيْهِ أمْرُها !

اسْتَبْطَأَ أبوهُ عَوْدَتَهُ ، وَافْتَرَسَ القَلَقُ صَدْرَهُ ، وَساوَرَهُ

الخَوْفُ على ابْنِهِ ، فَأطْلَقَ الخَدَمَ وراءَهُ ، يَبْحَثونَ عَنْهُ في أرْجاءِ القَرْيَةِ ، فَعَثَرَ عَلَيْهِ أحَدُهُمْ في الكَنيسَةِ يُناقِشُ أحَدَ القُسُسِ ، وَيَتَباحَثُ مَعَهُ في الدِّينِ ، وَسَمِعَهُ يَقولُ لَهُ ، وَهُوَ يُنْهي الحَديثَ مَعَهُ :

« إنَّ هَذا الدِّينَ خَيْرٌ مِمّا نَحْنُ فيهِ . . أيْنَ أصْلُ هَذا الدِّينِ ؟»

وَسَمِعَ القِسِّيسَ يُجيبُهُ : « أصْلُ هَذا الدِّينِ في بِلادِ الشّامِ . »

وَفَزِعَ الخادِمُ لِما رَأى وَلِما سَمِعَ . . أيَخْرُجُ قَطِنُ (خادِمُ) النّارِ وَراعيها عَنْ دينِ آبائِهِ وَأجْدادِهِ ، وَيَدْخُلُ في دينِ النَّصارى ؟ إنَّ ذَلِكَ حَدَثٌ عَظيمٌ !

عادَ « سَلْمانُ » مَعَ الخادِمِ إلى الدّارِ ، فَألْفى والِدَهُ في انْتِظارِهِ جَزِعًا مَكْروبًا ، فَأخْبَرَهُ بِما رَآهُ في الكَنيسَةِ ، وَقالَ لَهُ :

« يا أبَتِ ، لَقَدْ أعْجَبَني دينُهُمْ ، وَهَزَّتْ مَشاعِري صَلاتُهُمْ . »

فَذُعِرَ الأبُ مِمّا سَمِعَ ، وَقالَ لَهُ : « أيْ بُنَيَّ ، لا خَيْرَ لَكَ في ذَلِكَ الدِّينِ . إنَّ دينَكَ وَدينَ آبائِكَ خَيْرٌ مِنْ دينِهِمْ . »

قالَ سَلْمانُ : « كَلا ، يا أبي ، إنَّ دينَهُمْ خَيْرٌ مِمّا نَحْنُ فيهِ . »

ضاقَ أبوهُ ذَرْعًا بِما سَمِعَ ، وَخَشِيَ أنْ يَنْحَرِفَ « سَلْمانُ » عَنْ دينِ المَجوسِيَّةِ ، دينِ آبائِهِ وَأجْدادِهِ ، وَيَدْخُلَ في دينِ النَّصْرانِيَّةِ (المَسيحِيَّةِ) ، فَيَفْقِدَ بِذَلِكَ ما يَنْتَظِرُهُ مِنْ جاهٍ ، وَما يُعِدُّهُ لَهُ مِنْ سُلْطانٍ ؛ فَأوْثَقَهُ بِالقُيودِ ، وَحَبَسَهُ في الدّارِ ، وَأقامَ عَلَيْهِ الحُرّاسَ ، وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ أنْ لا يَتَهاوَنوا في شَأنِهِ ، وَأنْ لا يَغْفُلوا عَنْهُ لَحْظَةً !

وَلَكِنَّ « سَلْمانَ » وَجَدَ مِنَ الخَدَمِ مَنْ يُعينُهُ عَلى أمْرِهِ ،

فَبَعَثَ إلى أصْحابِ الكَنيسَةِ يَقولُ لَهُمْ : « إذا جاءَكُمْ
رَكْبٌ مِنَ الشّامِ ، فَأخْبِروني بِمَوْعِدِ عَوْدَتِهِ . »

وَما هِيَ إلا فَتْرَةٌ قَليلَةٌ مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى جاءَهُ الخَبَرُ :
« إنَّ هُناكَ قافِلَةً مُتَّجِهَةً إلى الشّامِ . »

فاحْتالَ « سَلْمانُ » حَتَّى فَكَّ قُيودَهُ ، وَخَرَجَ مِنَ الدّارِ
مُسْتَخْفِيًا ، وَلَحِقَ بِالقافِلَةِ ، وَمَضى مَعَها خائِفًا يَتَرَقَّبُ
وَلَكِنَّهُ يَشْعُرُ بِالحُرِّيَّةِ تُنْعِشُ قَلْبَهُ . وَبِالعِزَّةِ تَمْلأُ صَدْرَهُ . .
لَقَدْ خَرَجَ إلى الفَضاءِ الفَسيحِ ، يَنْظُرُ في مَلَكوتِ اللهِ ،
وَيَتَأَمَّلُ في هَذِهِ السَّمَواتِ الَّتي رَفَعَها الخالِقُ بِغَيْرِ عَمَد
(جمع عمود) ، وَهَذِهِ المَصابيحِ المُتَلأْلِئَةِ الّتي زَيَّنَها بِها ،
وَهَذِهِ الشَّمْسِ السّاطِعَةِ الّتي تَغْمُرُ الأرْضَ بِدِفْئِها ،
فَتَبْعَثُ فيها الحَياةَ وَالنَّشاطَ وَالنَّماءَ ، وَهَذِهِ الأرْضِ
المُنْبَسِطَةِ الواسِعَةِ الَّتي يَسَّرَ اللهُ لِلإنْسانِ أنْ يَمْشِيَ في
نَواحيها ، وَيَسْعى في أرْجائِها يَبْتَغي مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَأكُلُ

مِنْ رِزْقِهِ . . لَقَدْ كانَ « سَلْمانُ » خائِفًا أنْ يَلْحَقَ بِهِ أبوهُ
فَيَرُدَّهُ إلى مَحْبِسِهِ مَلومًا مَحْسورًا ، كَما كانَ سَعيدًا مُنْتَشِيًا
بِهَذا الانْطِلاقِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ في مَخْلوقاتِ اللهِ ، حَتَّى
بَلَغَتِ القافِلَةُ بِلادَ الشّامِ ، فَبَلَغَ « سَلْمانُ » بِذَلِكَ مَأمَنَهُ .

لَقَدْ أصْبَحَ في مَأْمَنٍ مِنْ أبيهِ ؛ فَهُوَ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَلْحَقَ
بِهِ ، وَيُعيدَهُ إلى ما كانَ عَلَيْهِ مِنْ دينِ المَجوسِيَّةِ ، وَلا أنْ
يَجْعَلَهُ خادِمًا لِلنّارِ الَّتي يَعْبُدونَها ، وَلا أنْ يَحْبِسَهُ في
القَصْرِ لا يُغادِرُهُ ؛ وَلَكِنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَسْتَقِرَّ ، وَقَلْبَهُ لَمْ يَهْدَأْ ،
وَروحَهُ لَمْ تَطْمَئِنَّ ، وَعَقْلَهُ لَمْ يَسْتَرِحْ .

وَظَلَّ يَتَنَقَّلُ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، يَبْحَثُ عَنِ الحَقيقَةِ ،
وَيُضَحّي في سَبيلِها بِراحَتِهِ ، وَيَتَحَمَّلُ المَشَقّاتِ . . حَتّى
اسْتَقَرَّ بِهِ المُقامُ زَمَنًا في بَلْدَةِ « عَمّورِيَّةَ » وَفيها عَرَفَ أنَّهُ
قَدْ قَرُبَ زَمانٌ ، يُبْعَثُ فيهِ نَبِيٌّ في أرْضِ العَرَبِ ، وَيُهاجِرُ
مِنْ أرْضِهِ إلى أرْضٍ أُخْرى ، فيها نَخْلٌ كَثيرٌ ، وَهِيَ ذاتُ

حِجارةٍ سودٍ ، وَلَهُ عَلاماتٌ لا تخفى ، فَهُوَ لا يَأْكُلُ
الصَّدَقَةَ ، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ ، وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خاتَمُ النُّبُوَّةِ .

أَقامَ « سَلْمان » في « عَمّورِيَّة » ما شاءَ اللهُ لَهُ أَنْ يُقيمَ :
يَترَقَّبُ وَيَنْتَظِرُ قافِلَةً مُتَّجِهَةً إلى أَرْضِ الْعَرَبِ ، حَتَّى وَجَدَ
قَوْمًا مِنْ قَبيلَةِ « كَلْب » ، وَكانَ قَدْ كَسَبَ بَقَراتٍ
وَغُنَيْماتٍ مِنْ عَمَلٍ كانَ يُمارِسُهُ ، فَقالَ لَهُمْ :

« هَلْ تَحْمِلونني مَعَكُمْ عَلى أَنْ أُعْطيَكُمْ بَقَراتي
وَغُنَيْماتي ؟ »

قالوا : « نَعَمْ . »

وَتَجَهَّزَ « سَلْمانُ » وَسارَ مَعَهُمْ في طَريقِهِ إلى أَرْضِ
الْعَرَبِ ، وَهُوَ يُمَنّي نَفْسَهُ بِقُرْبِ تَحْقيقِ الأَمَلِ ، وَلَكِنَّ
الْقَوْمَ لَمْ يَفوا بِعَهْدِهِمْ ، فَما إِنْ بَلَغوا مَوْضِعًا يُسَمَّى
«وادي القُرى » حَتَّى باعوهُ عَبْدًا رَقيقًا لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهودِ !
وَبَيْنَما هُوَ يَخْدُمُ سَيِّدَهُ ، وَيَجْتَهِدُ في عَمَلِهِ - جاءَ

يَهوديٌّ مِنْ بَني قُرَيْظَةَ يَزورُ سَيِّدَهُ ، فَأَعْجَبَهُ جِدُّهُ
وَاجْتِهادُهُ ، فاشْتَراهُ مِنْ صاحِبِهِ ، وَحَمَلَهُ مَعَهُ إلى المَدينَةِ
الَّتي ما إِنْ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْها حَتَّى عَرَفَها مِنَ الوَصْفِ الَّذي
سَمِعَهُ ، فَأَقامَ بِها مَعَ سَيِّدِهِ الجَديدِ ، وَفي نَفْسِهِ أُمْنِيَّةٌ
وَأَشْواقٌ !

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ قَدْ ظَهَرَ في مَكَّةَ ، يَدْعو قَوْمَهُ إلى
عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَلَكِنَّ « سَلْمانَ » لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ الفُرْصَةُ
لِيَعْرِفَ عَنْهُ شَيْئًا ، وَلَمْ يُتَحْ لَهُ مِنَ الوَقْتِ ما يَتَقَصَّى بِهِ
أَنْباءَهُ ؛ فَقَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ الرِّقُّ كُلَّ شَيْءٍ ! وَلَمْ يَكُنْ أَمامَهُ
إلا أَنْ يَنْتَظِرَ قُدومَهُ إلى هَذِهِ الأَرْضِ ذاتِ النَّخْلِ ، كَما
عَرَفَ مِنَ القَوْمِ في « عَمّورِيَّة » !

* * *

لَمْ يَطُلِ انْتِظارُ « سَلْمان » كَثيرًا ؛ إِذْ سَرْعانَ ما ذاعَ نَبَأُ
وُصولِ الرَّسولِ ﷺ إلى قُباءَ ، وَأَسْرَعَ اليَهودُ يَتَناقَلونَ

الخَبَرَ ، وَجاءَ إلى سَيِّدِهِ قَريبٌ لَهُ ، وَقالَ لَهُ :

« قاتَلَ اللهُ قَبيلَتَي الأوْسِ وَالخَزْرَجِ ! إنَّهُمْ يَجْتَمِعونَ الآنَ في قَرْيَةِ قُباءَ عَلى رَجُلٍ جاءَهُمُ اليَوْمَ مِنْ مَكَّةَ ، يَزْعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ يوحَى إلَيْهِ . »

كانَ « سَلْمانُ » عَلى رَأْسِ نَخْلَةٍ ، يُشَذِّبُ جَريدَها ، وَيُصْلِحُ شَأْنَها ، فَما إنْ سَمِعَ هٰذا القَوْلَ حَتَّى اضْطَرَبَ اضْطِرابًا شَديدًا ، ظَنَّ مَعَهُ أنَّهُ سَيَسْقُطُ فَوْقَ سَيِّدِهِ الجالِسِ تَحْتَها ، فَهَبَطَ مُسْرِعًا ، وَقَدْ خَفَقَ قَلْبُهُ خَفْقَةَ أمَلٍ واسْتِبْشارٍ ، وَغابَ عَنْهُ كُلُّ شَيْءٍ إلا التَّيَقُّنَ مِمّا سَمِعَ ، فَأَسْرَعَ نَحْوَ الرَّجُلِ ، وَقالَ لَهُ :

« أواثِقٌ أنْتَ مِمّا تَقولُ ؟ »

فاغْتاظَ مِنْهُ سَيِّدُهُ ، وَنَهَرَهُ وَوَبَّخَهُ ، وَلَكَمَهُ في وَجْهِهِ لَكْمَةً قاسِيَةً ، ثُمَّ قالَ لَهُ :

« ما لَكَ أنْتَ وَذٰلِكَ ؟ اذْهَبْ إلى عَمَلِكَ . »

قالَ « سَلْمانُ » وَكَأنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِقَساوَةِ اللَّكْمَةِ وَضَراوَتِها : « إنَّما أرَدْتُ أنْ أتَثَبَّتَ مِنْ قَوْلِهِ . »

وَتَمَثَّلَ أمامَ عَيْنَيْ « سَلْمانَ » شَريطُ حَياتِهِ كُلِّها . إنَّ نَفْسَهُ لَتَهْفو إلى لِقاءِ رَسولِ اللهِ . لَقَدْ بَدَأَتْ حِكْمَةُ رَبِّهِ تَتَكَشَّفُ لَهُ . . إنْ كانَ الَّذي يَجْلِسُ في قُباءَ هُوَ النَّبِيُّ الَّذي بَشَّرَتْ بِهِ الأنْبِياءُ فَقَدِ انْتَهَتْ رِحْلَةُ المُعاناةِ ، وَبَدَأَتْ رِحْلَةُ اليَقينِ . . إنَّ غايَةَ أمَلِهِ أنْ يُؤْمِنَ بِهِ ، وَأنْ يَكونَ مِنْ أتْباعِهِ المُخْلِصينَ . . إنَّهُ مِنْ فَرْطِ تَفْكيرِهِ فيهِ ، وَطولِ تَرَقُّبِهِ لَهُ - يَكادُ يَعْرِفُهُ بِقَلْبِهِ . . إنَّهُ لا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ، وَيَقْبَلُ الهَدِيَّةَ ، وَخاتَمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ .

حَلَّ المَساءُ ، وَفَرَغَ « سَلْمانُ » مِنْ عَمَلِهِ ، وَكانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّمْرِ قَدْ جَمَعَهُ ، فَحَمَلَهُ وَمَضَى مُسْرِعًا إلى قَرْيَةِ قُباءَ ، يَتَنازَعُهُ الأمَلُ وَالقَلَقُ ، وَيَتَناوَبُهُ الخَوْفُ وَالاسْتِبْشارُ .

دَخَلَ « سَلْمانُ » عَلى الرَّسولِ ﷺ ، وَالْمُهاجِرونَ وَالأَنْصارُ مِنْ حَوْلِهِ ، يَحُفّونَ بِهِ ، وَإذا قَلْبُهُ يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ ، وَوَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ بِشْرًا وَسُرورًا ، وَيَكادُ يُعْلِنُ إِسْلامَهُ ، وَيُفْصِحُ عَنْ إيمانِهِ بِهِ . . وَلَكِنَّهُ يُغالِبُ نَفْسَهُ ، وَيُنازِعُ قَلْبَهُ ، وَيُصِرُّ عَلى التَّرَيُّثِ وَالأَناةِ ؛ فَقَدْ أَنْفَقَ شَطْرًا كَبيرًا مِنْ عُمْرِهِ لِيَصِلَ إِلى الحَقِّ وَالحَقيقَةِ ، فَما عَلَيْهِ إلا أَنْ يَسْتَأْنِيَ قَليلاً ، وَألا يَخْضَعَ لِعاطِفَةٍ طارِئَةٍ !

اقْتَرَبَ « سَلْمانُ » مِنَ الرَّسولِ ﷺ ، وَهَمَّ بِأَنْ يَكْشِفَ عَنْ كَتِفَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ كَبَحَ جِماحَ نَفْسِهِ ، وَرَدَّها إِلى شَيْءٍ مِنَ الهُدوءِ وَالأَناةِ . . ثُمَّ قالَ لِلرَّسولِ ﷺ :

« بَلَغَني أَنَّكَ رَجُلٌ صالِحٌ ، وَأَنَّكَ جِئْتَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ وَأَنَّ مَعَكَ قَوْمًا غُرَباءَ ، وَهَذا شَيْءٌ كُنْتُ أَنْوي التَّصَدُّقَ بِهِ ، فَوَجَدْتُكُمْ أَوْلى بِهِ . »

فَقَرَّبَهُ الرَّسولُ ﷺ لأَصْحابِهِ ، وَقالَ : « كُلوا بِاسْمِ

اللهِ . »

وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَذُقْ مِنْهُ شَيْئًا .

فَقالَ « سَلْمانُ » في نَفْسِهِ : « هَذِهِ واحِدَةٌ . . إِنَّهُ لا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ . »

اتَّخَذَ « سَلْمانُ » بَيْنَ القَوْمِ مَجْلِسَهُ ، وَأَخَذَ يُصْغي لِحَديثِ الرَّسولِ ﷺ ، وَما يَتْلو مِنْ قُرْآنٍ ، كَما كانَ يُصْغي إِلى ذَلِكَ صاحِبُ الدّارِ « كُلْثومُ بْنُ الهَدْمِ » شَيْخُ بَني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَكانَ رَجُلاً قَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ ، وَكَثُرَتْ تَجارِبُهُ ، وَاشْتَدَّتْ وَقَوِيَتْ خِبْرَتُهُ ، وَلَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ . . وَلَكِنَّهُ ما إِنْ سَمِعَ القُرْآنَ الكَريمَ يَتْلوهُ النَّبِيُّ الأَمينُ - حَتَّى انْشَرَحَ لِلإِسْلامِ صَدْرُهُ ، وَاسْتَضاءَ بِنورِ الإيمانِ قَلْبُهُ ، وَإِذا هُوَ يُعْلِنُ أَمامَ المَلإِ إِسْلامَهُ .

وَهَمَّ « سَلْمانُ » أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَهُ ، فَهُوَ يُحِسُّ أَنَّ جَوانِحَهُ كُلَّها قَدْ غُمِرَتْ بِضِياءِ القُرْآنِ ، وَلَكِنَّهُ تَمالَكَ نَفْسَهُ ، وَآثَرَ

أنْ يُصَدِّقَ بِعَقْلِهِ كَما صَدَّقَ بِقَلْبِهِ ، فانسَلَّ مِنَ المَجْلِسِ هارِبًا ، وَقَدِ اسْتَيْقَنَ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلى مَشاعِرِهِ ، وَمَلَكَ عَلَيْهِ أقْطارَ نَفْسِهِ ، وَأصْبَحَ قِبْلَةَ أفْكارِهِ ، وَمَحَطَّ أنْظارِهِ . . وَلَكِنْ بَقِيَ أمْرانِ عَلَيْهِ أنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْهُما قَبْلَ أنْ يُعْلِنَ إسْلامَهُ .

* * *

أمْسَى المَساءُ ، وَكانَ الرَّسولُ ﷺ قَدْ تَحَوَّلَ مِنْ قَرْيَةِ قُباءَ إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، فَسَعى إلَيْهِ « سَلْمانُ » ، وَمَعَهُ بَعْضُ التَّمْرِ ، قَدَّمَهُ إلَيْهِ ، وَقالَ :

« إنِّي رَأيْتُكَ لا تَأكُلُ مِنَ الصَّدَقَةِ ، وَهَذا تَمْرٌ جَمَعْتُهُ هَدِيَّةً لَكَ . »

فَقَرَّبَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ لأصْحابِهِ ، وَقالَ لَهُمْ : « كُلوا بِاسْمِ اللهِ . » وَأكَلَ مَعَهُمْ .

قالَ سَلْمانُ في نَفْسِهِ : « وَهَذِهِ الثّانِيَةُ . . إنَّهُ يَأكُلُ مِنَ

الهَدِيَّةِ . بَقِيَتِ الأمارَةُ الثالِثَةُ . »

وَكانَ أنْ ماتَ « كُلْثومُ بْنُ الهَدْمِ » فَخَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُشَيِّعُهُ مَعَ أصْحابِهِ ، وَخَرَجَ « سَلْمانُ » يَتْبَعُ الجِنازَةَ ، وَعَيْناهُ لا تُفارِقانِ شَخْصَ الرَّسولِ ﷺ ، فَلَمّا وَصَلوا إلى البَقيعِ ، مَقْبَرَةِ أهْلِ المَدينَةِ ، جَلَسَ الرَّسولُ الكَريمُ وَمَعَهُ أصْحابُهُ ، فَوَقَفَ « سَلْمانُ » خَلْفَهُ ، لَعَلَّهُ يَرى العَلامَةَ الثّالِثَةَ . . وَكَأنَّما شَعَرَ الرَّسولُ الكَريمُ أنَّ « سَلْمانَ » يَقِفُ هَذِهِ الوَقْفَةَ يُريدُ أنْ يَتَثَبَّتَ مِنْ شَيْءٍ وُصِفَ لَهُ ، فَألْقى رِداءَهُ عَنْ كَتِفَيْهِ ، فَبانَ « سُلْطانُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ » ، فَأكَبَّ « سَلْمانُ » عَلَيْهِ يُقَبِّلُهُ ، وَهُوَ يُغَمْغِمُ في صَوْتٍ لا يَكادُ يُبينُ ، قَدْ أخَذَتْهُ الفَرْحَةُ ، وَأثْمَلَتْهُ النَّشْوَةُ :

« يا رَسولَ اللهِ . . يا رَسولَ اللهِ . . أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَأنَّكَ عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ . » فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ :

« تَحَوَّلْ ، يا سَلْمانُ . »

وَجَلَسَ « سَلْمانُ » بَيْنَ يَدَيِ الرَّسولِ الأمينِ ، وَهُوَ يَكادُ يَطيرُ مِنَ الفَرَحِ ، وَراحَ يَقُصُّ عَلى الرَّسولِ وَأَصْحابِهِ قِصَّتَهُ .

* * *

أَدْرَكَ « سَلْمانُ » أَنَّهُ بَلَغَ الغايَةَ الَّتي كانَ يَنْشُدُها ، وَوَقَعَ عَلى الحَقيقَةِ النّاصِعَةِ الَّتي لا غُبارَ عَلَيْها ، وَلا شائِبَةَ فيها ، فَكانَ سابِقَ الفُرْسِ ، كَما كانَ صُهَيْبٌ سابِقَ الرُّومِ ، وَبِلالٌ سابِقَ الحَبَشَةِ .

تَذَوَّقَ « سَلْمانُ » حَلاوَةَ الإيمانِ ، وَخالَطَتْ بَشاشَتُهُ قَلْبَهُ ، فَلَمْ يَعُدْ يَصْبِرُ عَلى فِراقِ الرَّسولِ ﷺ ، وَكُلَّما بَعُدَ عَنْهُ امْتَلأَ قَلْبُهُ غَيْظًا . وَفاضَ صَدْرُهُ ضيقًا بِهذا الرِّقِّ الَّذي يُكَبِّلُهُ وَيُقَيِّدُهُ ، وَلا يَجِدُ مِنْهُ خَلاصًا !

وَأَحَسَّ الرَّسولُ ﷺ بِما يُعانيهِ « سَلْمانُ » ، فَقالَ لَهُ : « كاتِبْ صاحِبَكَ ، يا سَلْمانُ . » أي (اشْتَرِ حُرِّيَّتَكَ مِنْهُ)

وَكانَ كَثيرٌ مِنَ الأَرِقّاءِ يَشْتَرونَ حُرِّيَّتَهُمْ بِمالٍ يَدْفَعونَهُ إلى أَسْيادِهِمْ ، أَوْ عَمَلٍ يَعْمَلونَهُ ، فَذَهَبَ « سَلْمانُ » إلى سَيِّدِهِ - وَكانَ جَشِعًا مُحِبًّا لِلْمالِ ، حَريصًا عَلَيْهِ - وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُكاتِبَهُ . . وَبَعْدَ مُساوَمَةٍ طَويلَةٍ مُجْهِدَةٍ وافَقَ عَلى مُكاتَبَتِهِ ، بِأَنْ يُحْيِيَ لَهُ ثَلاثَمائَةِ نَخْلَةٍ بِالحَفْرِ وَالغَرْسِ ، وَيَدْفَعَ لَهُ أَرْبَعينَ أوقِيَّةً مِنَ الذَّهَبِ .

لَمْ يَطِبْ « سَلْمانُ » نَفْسًا بِهذِهِ المُكاتَبَةِ ، فَمَتى يَسْتَطيعُ أَنْ يُنْجِزَ الحَفْرَ وَالغَرْسَ لِثَلاثَمائَةِ نَخْلَةٍ ؟ وَإِذا كانَ ذَلِكَ مُسْتَطاعًا فَمِنْ أَيْنَ لَهُ المالُ الَّذي يَدْفَعُهُ إلى صاحِبِهِ ؟

وَمَعَ ذَلِكَ وَقَّعَ هَذِهِ المُكاتَبَةَ ، لَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ ضيقِهِ مَخْرَجًا ، وَبَعْدَ عُسْرِهِ يُسْرًا !

وَمَضى « سَلْمانُ » إلى الرَّسولِ الحَبيبِ ، يُنْبِئُهُ بِأَمْرِ هَذِهِ المُكاتَبَةِ الظّالِمَةِ ، فَقالَ الرَّسولُ ﷺ لأَصْحابِهِ : « أَعينوا أَخاكُمْ . »

فَجَعَلَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ المُسْلمينَ يُعينُ بِما عِنْدَهُ مِنْ شَتَلاتِ النَّخْلِ ، وَقالَ الرَّسولُ الحَبيبُ لِسَلْمانَ : « اِذْهَبْ ، واحْفِرْ ، فَإِذا فَرَغْتَ فادْعُني لأَضَعَ الشَّتَلاتِ بِنَفْسي . »

وَلَمْ يَذْهَبْ « سَلْمانُ » وَحْدَهُ ، وَإِنَّما ذَهَبَ مَعَهُ كَثيرٌ مِنَ المُسْلِمينَ و أَخَذوا يَحْفِرونَ ، وَيَجْتَهِدونَ في الحَفْرِ ، وَالعَرَقُ يَتَفَصَّدُ مِنْهُمْ ، حَتَّى أَتَمُّوا العَمَلَ ، فَجاءَ رَسولُ اللهِ ﷺ ، وَأَخَذوا يُقَرِّبونَ إِلَيْهِ الشَّتَلاتِ ، فَيَضَعُ كُلَّ واحِدَةٍ في حُفْرَتِها ، حَتَّى أَتَمَّها جَميعًا ، ما عَدا واحِدَةً وَضَعَها « سَلْمانُ » بِيَدِهِ ، وَهِيَ الوَحيدَةُ الَّتي ماتَتْ دونَ أَنْ تُثْمِرَ !

أَدّى « سَلْمانُ » النَّخْلَ ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ المالَ - أَرْبَعينَ أُوقِيَّةً مِنَ الذَّهَبِ ، فَمِنْ أَيْنَ لَهُ ذَلِكَ ؟ وَلَكِنَّ الرَّسولَ ﷺ يَقولُ لأَصْحابِهِ : « أَعينوا أَخاكُمْ ! »

وَفي يَوْمٍ جاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِ البَيْضَةِ مِنَ الذَّهَبِ ، فَقالَ : « أَيْنَ سَلْمانُ الفارِسِيُّ ؟ »

فَلَمّا حَضَرَ سَلْمانُ قالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ : « خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِها ما عَلَيْكَ . »

وَنَظَرَ سَلْمانُ إِلَيْها فَرَآها صَغيرَةً فَقالَ : « وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ مِمّا عَلَيَّ ، يا رَسولَ اللهِ ؟ » يُريدُ أَنَّها لا تَكْفي .

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ : « إِنَّ اللهَ سَيُؤَدّي بِها عَنْكَ . »

يَقولُ سَلْمانُ : « فَأَخَذْتُها ، وَوَزَنْتُ مِنْها لِصاحِبي أَرْبَعينَ أُوقِيَّةً ، وَنِلْتُ حُرِّيَّتي . »

* * *

اِسْتَرَدَّ « سَلْمانُ » حُرِّيَّتَهُ ، وَكانَ بِها فَرِحًا مَسْرورًا ، مُغْتَبِطًا مَحْبورًا ؛ لأَنَّها أَتاحَتْ لَهُ أَنْ يَحْظى بِالقُرْبِ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَيَنْعَمَ بِحَديثِهِ ، وَيَتَشَرَّبَ مِنْ حِكْمَتِهِ ،

وَيَسْتَضيءَ بأنْوارِ إشْراقِهِ ، وَيَسْتَقِيَ مِنْ نَبْعِ أخْلاقِهِ ، وَيَقْتَدِيَ بِهِ في سُلوكِهِ ، وَيَشْهَدَ مَعَهُ المَشاهِدَ ، وَيَخوضَ مَعَهُ المَعارِكَ في سَبيلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ .

وَكانَتْ غَزْوَةُ الخَنْدَقِ (الأحْزابِ) أوَّلَ غَزْوَةٍ شَهِدَها ، وَكانَ لَهُ فيها مَشورَتُهُ الَّتي كانَتْ مِنْ أسْبابِ النَّصْرِ وَعَوامِلِهِ . . فَحينَ اجْتَمَعَتِ القَبائِلُ عَلى قِتالِ المُسْلِمينَ ، وَتآمَرَتْ عَلى غَزْوِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ وَفَكَّرَ المُسْلِمونَ في طَريقَةٍ يُنْقِذونَ بِها المَدينَةَ ، وَيَدْفَعونَ عَنْها العُدْوانَ ، وَكانَتْ جِهَةُ الشَّمالِ الغَرْبِيِّ مِنَ المَدينَةِ أضْعَفَ نِقاطِها ، فَهِيَ طَريقٌ مَفْتوحَةٌ إلى حَدائِقِ المَدينَةِ وَبَساتينِها ، وَلَوْ دَخَلَ مِنْها العَدُوُّ لَتَدَفَّقَ سَريعًا في دُروبِ المَدينَةِ وَطُرُقاتِها ، وَلأصابَ مِنْها مَقْتَلاً !

وَبَيْنَما المُسْلِمونَ يُفَكِّرونَ ، وَيُمْعِنونَ في التَّفْكيرِ - أضاءَ اللهُ بَصيرَةَ « سَلْمانَ » ، وَأنارَ عَقْلَهُ ، وَهَداهُ إلى

فِكْرَةٍ رَشيدَةٍ ، وَسَبيلٍ مَأْمونَةٍ ، فَقالَ :

« يا رَسولَ اللهِ ، كُنّا في بِلادِ الفُرْسِ إذا أغارَ عَلَيْنا العَدُوُّ حَفَرْنا خَنْدَقًا واسِعًا عَميقًا بَيْنَنا وَبَيْنَهُ ، فَلا يَسْتَطيعُ العَدُوُّ اقْتِحامَهُ ، وَيَرْتَدُّ خاسِئًا مَدْحورًا . »

اِعْتَرَضَ بَعْضُ المُسْلِمينَ عَلى هَذِهِ الفِكْرَةِ ، وَعَدَّها جُبْنًا عَنِ القِتالِ ، وَفِرارًا مِنْ مُواجَهَةِ العَدُوِّ ، وَلَكِنَّ اللهَ شَرَحَ صَدْرَ الرَّسولِ ﷺ لَها ، فَحَبَّذَها وَأجازَها ، وَبَدَأَ المُسْلِمونَ يَعْمَلونَ في حَفْرِ الخَنْدَقِ في الشَّمالِ الغَرْبِيِّ مِنَ المَدينَةِ ، تِلْكَ النُّقْطَةِ الَّتي يَتَوَقَّعونَ مَجيءَ العَدُوِّ مِنْها .

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ في مُقَدِّمَةِ العامِلينَ ، وَكانَ « سَلْمانُ » يَعْمَلُ بِجِدٍّ واجْتِهادٍ ، حَتَّى إنَّ ما يَعْمَلُهُ لا يَنْهَضُ بِهِ عَدَدٌ مِنَ الرِّجالِ ؛ فَتَنافَسَ فيهِ الأنْصارُ وَالمُهاجِرونَ .

قالَ الأنْصارُ : « سَلْمانُ مِنّا . »

وَقالَ المُهاجِرونَ : « سَلْمانُ مِنّا . »

فَقالَ الرَّسولُ ﷺ : « سَلْمانُ مِنّا أهْلَ البَيْتِ . »

فَرَفَعَهُ الرَّسولُ الكَريمُ مَكانًا عَلِيًّا ، وَجَعَلَهُ في مَنْزِلَةٍ سامِيَةٍ ، تَشْرَئِبُّ (تَتَطَلَّعُ) لَها أعْناقُ كُلِّ المُسْلِمينَ .

وَكانَ ﷺ يُبادِلُهُ الحُبَّ ، وَيَخْتَصُّهُ بِمَوَدَّةٍ صافِيَةٍ ، حَتّى إنَّهُ كانَ إذا خَلا إلَيْهِ لا يَبْغي أحَدًا سِواهُ ، وَلا يَأنَسُ إلى أحَدٍ غَيْرِهِ ، كَما يَقولُ أبو الدَّرْداءِ رضي الله عنه .

* * *

لَزِمَ « سَلْمانُ » الرَّسولَ ﷺ حَتّى انْتَقَلَ إلى الرَّفيقِ الأعْلى ، فَحَزِنَ كَما حَزِنَ سائِرُ المُسْلِمينَ ، وَلَكِنَّهُ الْتَفَتَ كَما الْتَفَتَ سائِرُ المُسْلِمينَ إلى أنَّ الإسْلامَ الَّذي جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَجاهَدَ في سَبيلِ نَشْرِهِ وَتَبْليغِهِ - هُوَ الَّذي يَجِبُ أنْ يَبْذُلَ في سَبيلِهِ حَياتَهُ ، وَأنَّ السَّيْرَ عَلى المَنْهَجِ الَّذي جاءَ بِهِ الرَّسولُ الكَريمُ ، وَالاقْتِداءَ بِهِ - هُوَ الحُبُّ الصَّحيحُ لَهُ . . فَسَرْعانَ ما تَغَلَّبَ عَلى حُزْنِهِ ، وَكَبَحَ

جِماحَ عاطِفَتِهِ ، وَانْطَلَقَ مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ !

وَكانَ في الجُيوشِ الذّاهِبَةِ إلى بِلادِ الفُرْسِ ، فَكانَ يُحاوِرُ الفُرْسَ بِلُغَتِهِمْ ، وَيَنْقُلُ عَنْهُمْ حَديثَهُمْ إلى الجَيْشِ الإسْلامِيِّ . وَقَدْ حاصَرَ « القَصْرَ الأبْيَضَ » ، وَدَعا أصْحابَهُ وَحامِيَتَهُ إلى الإسْلامِ ، وَصَبَرَ عَلى دَعْوَتِهِمْ أيّامًا ثَلاثَةً كَما سَمِعَ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَلَمّا أصَمّوا آذانَهُمْ عَنِ الدَّعْوَةِ ، وَأبَوْا إلا القِتالَ - نَهَضَ إلَيْهِمْ بِجَيْشِهِ في اليَوْمِ الرّابِعِ فَفَتَحَهُ اللهُ عَلَيْهِ .

وَقَدْ وَلّاهُ أميرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ « المَدائِنَ » فَما رَكِبَهُ غُرورٌ ، وَلا أصابَهُ زَهْوٌ ، وَإنَّما كانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَهُوَ أميرٌ عَلى عِشْرينَ ألْفًا . . كانَ يَأْخُذُ عَطاءَهُ مِنْ بَيْتِ المالِ فَيُفَرِّقُهُ بَيْنَ المَساكينِ ، وَيَدَّخِرُ دِرْهَمًا واحِدًا يَذْهَبُ بِهِ إلى السّوقِ فَيَشْتَرى بِهِ خوصًا ، فَيَعْمَلُ فيهِ وَيَنْسِجُهُ - وَكانَ قَدْ تَعَلَّمَ هَذِهِ الحِرْفَةَ عِنْدَما كانَ عَبْدًا

مَمْلوكًا - ثُمَّ يَبيعُ ما صَنَعَهُ بِثَلاثَةِ دَراهِمَ . فَيَشْتَري بِواحِدٍ خُوصًا جَديدًا ، وَيُنْفِقُ واحِدًا عَلى عِيالِهِ ، وَيَتَصَدَّقُ بِالدِّرْهَمِ الثّالِثِ .

وَكانَ يَقولُ : « لَوْ أَنَّ عُمَرَ نَهاني عَنْ ذَلِكَ ما انْتَهَيْتُ . »

قالَ لَهُ حُذَيْفَةُ مَرَّةً - وَكانَ سَلْمانُ والِيًا عَلى المَدائِنِ :

« أَلا نَبْني لَكَ بَيْتًا ؟ »

قالَ سَلْمانُ : « وَلِمَ ؟ أَتُريدُ أَنْ تَجْعَلَني مالِكًا ، وَتَجْعَلَ لي دارًا مِثْلَ دارِكَ الَّتي بِالمَدائِنِ ؟ »

قالَ حُذَيْفَةُ : « لا ، نَبْني لَكَ بَيْتًا مِنَ القَصَبِ (الغاب) وَنَسْقُفُهُ بِالبَرْدي ، إِذا قُمْتَ كادَ يُصيبُ رَأْسَكَ ، وَإِذا نِمْتَ كادَ يُصيبُ قَدَمَيْكَ . »

قالَ سَلْمانُ : « كَأَنَّكَ كُنْتَ ، يا حُذَيْفَةُ ، في نَفْسي ! »

وَمَدَّ اللهُ في عُمُرِ « سَلْمانَ » مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ ،

زاهِدًا في الدُّنْيا ، حَتّى كانَتْ وَفاتُهُ في العامِ الخامِسِ وَالثَّلاثينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، في آخِرِ خِلافَةِ عُثْمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَكانَتِ الجَنَّةُ في شَوْقٍ إِلَيْهِ ، كَما أَخْبَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنَّ الجَنَّةَ تَشْتاقُ إِلى ثَلاثَةٍ : عَلِيٍّ وَعَمّارٍ وَسَلْمانَ . »

رَجُلٌ مُبارَكٌ

(فيروز الدَّيْلَميّ)

مَرِضَ الرَّسولُ ﷺ في المَدينَةِ، واسْتَطارَ الخَبَرُ في أرْجاءِ الجَزيرَةِ العَرَبيَّةِ. أمّا المُسْلِمونَ الصّادِقونَ فَقَدْ شَقَّ ذَلِكَ عَلى نُفوسِهِمْ، وَأصابَهُمُ الحُزْنُ وَالغَمُّ، وَرَكِبَهُمُ الأسى وَالهَمُّ؛ فَقَدْ خَشُوا أنْ يَنْقَطِعَ الوَحْيُ الإلَهِيُّ عَنِ الأرْضِ! وَأمّا المُنافِقونَ الَّذينَ لَمْ يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلوبِهِمْ، وَلَمْ يَعْمُرْ صُدورَهُمْ - فَقَدْ أعْلَنوا ارْتِدادَهُمْ عَنِ الإسْلامِ، وَادَّعى بَعْضُهُمُ النُّبُوَّةَ: اِدَّعى ذَلِكَ الأسْوَدُ العَنْسِيُّ في اليَمَنِ، وَمُسَيْلَمَةُ الكَذّابُ في اليَمامَةِ، وَطُلَيْحَةُ الأسَدِيُّ في بَني أسَدٍ. وَزَعَمَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ أنَّ الوَحْيَ يَأتيهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إلى قَوْمِهِ، كَما

أرْسِلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ إلى قُرَيْشٍ قَوْمِهِ.

وَالأسْوَدُ العَنْسِيُّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ نَصيبٌ، فَهُوَ أسْوَدُ النَّفْسِ، قاتِمُ السَّريرَةِ، حاقِدُ القَلْبِ، ضَخْمُ الجُثَّةِ. اِنْعَكَسَ حِقْدُ قَلْبِهِ، وَسَوادُ نَفْسِهِ - عَلى وَجْهِهِ.. وَكانَ قَبْلَ أنْ يَتَظاهَرَ بِالإسْلامِ كاهِنًا مُشَعْوِذًا، لَهُ خِفَّةُ يَدٍ، تُظْهِرُ الشَّيْءَ أمامَ العُيونِ عَلى غَيْرِ حَقيقَتِهِ، فَيَسْحَرُ أبْصارَ النّاسِ، وَيَلْعَبُ بِعُقولِهِمْ، كَما كانَ فَصيحًا بَليغًا، يَأسِرُ الألْبابَ بِفَصاحَتِهِ، وَيَخْلُبُ النّاسَ بِبَلاغَتِهِ.

وَكانَ يَنْشُرُ جَواسيسَهُ وَأتْباعَهُ المُقَرَّبينَ مِنْهُ بَيْنَ النّاسِ، فَيَتَعَرَّفونَ عَلى مُشْكِلاتِهِمْ، وَيَطَّلِعونَ عَلى أسْرارِهِمْ، وَيَكْتَشِفونَ ما يُراوِدُهُمْ مِنَ الأمانِيِّ، وَما يَدورُ بِخَلَدِهِمْ مِنَ الآمالِ. ثُمَّ يَنْقُلونَ إلَيْهِ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَإذا لَقِيَهُ النّاسُ حَدَّثَهُمْ بِما عَرَفَ عَنْهُمْ، وَزَعَمَ لَهُمْ أنَّ الوَحْيَ هَبَطَ عَلَيْهِ وَأخْبَرَهُ، فَيَنْخَدِعُ النّاسُ بِمَزاعِمِهِ، وَتَسْتَميلُهُمْ أباطيلُهُ.

وَكانَ الأسْوَدُ يُحيطُ نَفْسَهُ بِهالَةٍ مِنَ الغُموضِ ، فَلا يَظْهَرُ لِلنّاسِ إلا مُقَنَّعًا مُلَثَّمًا ، حَتّى تَكونَ لَهُ مَهابَةٌ في النُّفوسِ ، وَيَظَلَّ النّاسُ مَشْغوفينَ بِرُؤْيَتِهِ ، وَالتَّطَلُّعِ إلَيْهِ .

وَكانَ بَنو مَذْحِج ، قَوْمُ الأسْوَدِ العَنسِيِّ ، أوَّلَ مَنِ اتَّبَعَهُ ، وَانْساقَ وَراءَ أباطيلِهِ ، فَتَقَوّى بِهِمْ ، وَ وَثَبَ عَلى « صَنْعاء » فَاسْتَوْلى عَلَيْها ، وَقَتَلَ واليها « شَهْرَ بْنَ باذان » وَتَزَوَّجَ مِنِ امْرَأتِهِ « آذاد » .

ثُمَّ زَحَفَ مِنْ صَنْعاءَ إلى ما حَوْلَها مِنَ المُدُنِ وَالقُرى ، فَتَساقَطَتْ تَحْتَ ضَرَباتِهِ ، حَتّى دانَتْ لَهُ البِلادُ ما بَيْنَ حَضْرَمَوت إلى الطّائِفِ ، وَما بَيْنَ البَحْرَيْنِ وَالأحْساء وَعَدَن .

قَوِيَتْ شَوْكَةُ الأسْوَدِ العَنسِيِّ ، وَانْتَشَرَتْ دَعْوَتُهُ كَما تَنْتَشِرُ النّارُ في الهَشيمِ ، وَزادَ مِنْ سُلْطانِهِ عَلى أتْباعِهِ ما

كانَ يَأتيهِ أمامَهُمْ مِنْ أباطيلَ تَسْحَرُهُمْ ، وَما يُنَبِّئُهُمْ بِهِ مِنْ أخْبارِهِمْ ، زاعِمًا لَهُمْ أنَّ الوَحْيَ هَبَطَ عَلَيْهِ بِما يَقولُهُ لَهُمْ .

* * *

بَلَغَتْ أخْبارُ الأسْوَدِ العَنسِيِّ مَسامِعَ الرَّسولِ ﷺ في المَدينَةِ ، فَأرْسَلَ جَماعَةً مِنْ أصْحابِهِ بِرَسائِلَ إلى مَنْ يَتَوَسَّمُ فيهِمُ الخَيْرَ وَالثَّباتَ ، مِنَ الَّذينَ سَبَقوا إلى الإسْلامِ مِنْ أهْلِ اليَمَنِ ، وَحَضَّهُمْ في هَذِهِ الرَّسائِلِ عَلى مُقاوَمَةِ هَذِهِ الفِتْنَةِ ، وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الأسْوَدِ الَّذي أشْعَلَها .

وَتَحَرَّكَ كُلُّ واحِدٍ بَلَغَتْهُ رِسالَةٌ مِنَ الرَّسولِ ﷺ ، وَ وَدَّ لَوِ اسْتَطاعَ الإمْساكَ بِالأسْوَدِ وَالفَتْكَ بِهِ ؛ فَقَدْ زادَتْهُمْ رَسائِلُ الرَّسولِ قُوَّةً إلى قُوَّتِهِمْ ، وَأذْكَتِ الرَّغْبَةَ الَّتي كانَتْ تُلِحُّ عَلَيْهِمْ . وَكانَ أسْرَعَهُمْ إلى الحَرَكَةِ وَالتَّدْبيرِ « فَيْروز الدَّيْلَمِيُّ » صاحِبُ رَسولِ اللهِ وَكَبيرُ الأبْناءِ

آنذاكَ . وَ « الأبناءُ » هُمُ الَّذين كانوا يَتوَلَّوْنَ أمرَ اليَمنِ ، وَهُمْ جَماعَةٌ آباؤهُمْ مِنَ الفُرْسِ الَّذينَ نَزحوا إلى اليَمنِ ، وَأمَّهاتُهُمْ مِنَ العَرَبِ ، وَكانَ كَبيرُهُمْ « باذان » عِنْدَ ظُهورِ الإسْلامِ يَحْكُمُ بلادَ اليَمَنِ تَحْتَ رايَةِ كِسْرى مَلِكِ الفُرْسِ ، فَلَمّا اسْتَبانَ لَهُ صِدْقُ الإسْلامِ وَعَدْلُهُ - خَلَعَ طاعَةَ كِسْرى ، وَاتَّخَذَ الإسْلامَ دينًا ، وَ أقَرَّهُ الرَّسولُ ﷺ عَلى عَمَلِهِ ، وَانتقَلَ إلى الرَّفيقِ الأعْلى قَبْلَ ظُهورِ الأسْوَدِ العَنسِيِّ بِقَليلٍ .

اِتَّفَقَ « فيروز » مَعَ ابنِ عَمِّهِ « داذَوَيْه » عَلى مُهاجَمَةِ الأسْوَدِ مِنْ داخِلِ جَماعَتِهِ ، وَالقَضاءِ عَلَيْهِ بِوَساطَةِ أتْباعِهِ ، تارِكينَ الآخَرينَ يُهاجِمونَهُ مِنَ الخارِجِ ، وَيُواجِهونَ جُيوشَهُ في مَعارِكِ القِتالِ .

وَ وَصَلَ إلى « فيروز » أنَّ قائِدَ جَيْشِ الأسْوَدِ العَنسِيِّ يَضيقُ بِهِ ، وَيَغْتاظُ مِنْهُ ؛ فَقَدِ امْتَلأَ غُرورًا ، وَتاهَ كِبرًا ، لِما

ظَفِرَ بِهِ مِنْ نَجاحٍ ، فَأساءَ مُعامَلَتَهُ ، وَأصْبَحَ القائِدُ يَخْشى عَلى نَفْسِهِ ، وَلا يَأْمَنُ شَرَّ الأسْوَدِ .

وَانتَهَزَ « فيروز » هَذِهِ الفُرْصَةَ ، وَأسْرَعَ يَسْتَفيدُ مِنْ هَذِهِ المَعْلومَةِ الَّتي وَصَلَتْهُ ، وَذَهَبَ هُوَ وَابْنُ عَمِّهِ إلى القائِدِ ، وَأخْبَراهُ بِالرِّسالَةِ الَّتي جاءَتْهُمْ مِنَ الرَّسولِ ﷺ ، وَزَيَّنا لَهُ أنْ يَتَعاوَنَ مَعَهُما لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الأسْوَدِ ، قَبْلَ أنْ يَنْقَلِبَ الأسْوَدُ عَلَيْهِ ، وَيَعْمَلَ عَلى التَّخَلُّصِ مِنْهُ .

اِسْتَراحَ القائِدُ إلى حَديثِ فَيْروز وَصاحِبِهِ ، وَاطْمَأنَّ قَلْبُهُ إلَيْهِما ، وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ لِما عَرَضاهُ عَلَيْهِ ، وَرأى ذَلِكَ غَوْثًا مِنَ السَّماءِ ، يُنْقِذُهُ مِنَ الأسْوَدِ ، فَأطْلَعَهُما عَلى سِرِّهِ ، فَتَعاهَدَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ عَلى ذَلِكَ .

اِسْتَقَرَّ رَأيُ « فيروز » عَلى أنْ يُشْرِكَ مَعَهُمْ ابْنَةَ عَمِّهِ « آذاد » الَّتي تَزَوَّجَها الأسْوَدُ بَعْدَ أنْ قَتَلَ زَوْجَها « شَهْر ابنَ باذان » ، فَذَهَبَ إلى قَصْرِ الأسْوَدِ العَنسِيِّ ، وَدَخَلَهُ

مُسْتَخفِيًا ، وَالْتقى بِابْنَةِ عَمِّهِ ، وَقالَ لَها :

« يابْنَةَ العَمِّ ، تَعْلَمينَ ما صَنَعهُ هَذا الرَّجُلُ بنا . . لَقَدْ قَتلَ زَوْجَكِ ، وَفَضحَ نِساءَ قَوْمِكِ ، وَانْتزعَ الأمْرَ مِنّا . »

قالَتْ : « وَماذا تُريدُ مِنّي ؟ »

قالَ فَيْروز : « أريدُ أنْ تُعينينا عَلَيْه . »

قالَتْ آذاد : « أعينكُمْ عَلى أيِّ شَيْءٍ ؟ »

قالَ فَيْروز : « عَلى إخْراجِهِ . »

قالَتْ آذاد : « بَلْ عَلى قَتْلِهِ ! »

قالَ فَيْروز : « هَذا وَاللهِ ما قَصَدْتُهُ ، وَلَكِنّي لَمْ أرِدْ أنْ أواجِهَكِ بِهِ . »

قالَتْ آذاد : « وَاللهِ يا بْنَ العَمِّ ، ما شَكَكْتُ في ديني طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَإني مُؤْمِنَةٌ بِاللهِ رَبًّا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسولاً ، وَما رَأيْتُ هَذا الأسْوَدَ إلا فاجِرًا كَذّابًا ، خَئونًا لَئيمًا ، لا

يَرْعى حَقًّا ، وَلا يَتحشَّمُ عَنْ مُنْكَرٍ . »

قالَ فَيْروز : « وَلَكِنْ كَيْفَ نَسْتَطيعُ قَتْلَهُ ؟ »

قالَتْ آذاد : « إنَّهُ مُحْتاطٌ لِنَفْسِهِ أشَدَّ الاحْتِياطِ ، مُتَحَرِّزٌ أبْلَغَ التَّحَرُّزِ ، أقامَ الحُرّاسَ الأشِدّاءَ مِنْ حَوْلِهِ ، فَلا يَسْتَطيعُ أحَدٌ أنْ يَنْفُذَ إلَيْهِ إلا بِالحيلَةِ . »

قالَ فَيْروز : « وَما الحيلَةُ عِنْدَكِ ، يابْنَةَ العَمِّ ؟ »

قالَتْ آذاد : « هُناكَ حُجْرَةٌ مُتَطَرِّفَةٌ في القَصْرِ ، لا يَأبَهُ بِها الحُرّاسُ ، وَلا يَهْتَمّونَ بِأمْرِها ، وَحائِطُها الخارِجِيُّ إلى الطَّريقِ ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تَنْقبوها ، وَتَدْخُلوا مِنْها ، فإذا دَخَلْتُمْ وَجَدْتُمْ فيها السِّلاحَ ، وَسَأكونُ في انْتِظارِكُمْ . »

قالَ فيروز : « وَكَيْفَ نَنْقُبُها مِنَ الخارِجِ ، وَلَوْ رَآنا أحَدٌ وَاسْتَصْرَخَ الحُرّاسَ لأسْرَعوا إلَيْنا ، وَقَبَضوا عَلَيْنا . »

قالَتْ آذاد : « أرْسِلْ غَدًا رَجُلا تَثِقُ فيهِ عَلى هَيْئَةِ عامِلٍ ، وَسَأجْعَلُهُ يَنْقُبُها مِنَ الدّاخِلِ ، وَيُبْقي مِنْها شَيْئًا

يَسيرًا ، فَإذا جِئْتُمْ بِاللَّيْلِ أَكْمَلْتُمُ النَّقْبَ ، وَدَخَلْتُمْ . »

قالَ فَيْروز : « نِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُكِ . »

* * *

وَانْطَلَقَ فَيْروز الدَّيْلَمِيُّ إلى صاحِبَيْه ، وَأَخْبَرَهُما بِما تَمَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنَةِ عَمِّهِ ، وَمَضى ثَلاثَتُهُمْ يُعِدّونَ لِلأَمْرِ عُدَّتَهُ ، وَيَجْمَعونَ أَنْصارَهُمْ ، وَيُفْضونَ إلَيْهِمْ بِكَلِمَةِ السِّرِّ الَّتي يُهْرَعونَ إلى مُعاوَنَتِهِمْ عِنْدَ سَماعِها ، وَضَرَبوا مَوْعِدًا عِنْدَ الفَجْرِ .

وَلَمّا جَنَّ اللَّيْلُ ، وَأَسْدَلَ ظَلامَهُ عَلى الكَوْنِ - مَشى فَيْروز وَصاحِباهُ إلى القَصْرِ ، وَكَشَفوا عَنْ مَكانِ النَّقْبِ ، وَأَتَمّوهُ في يُسْرٍ ، وَدَخَلوا الحُجْرَةَ ، فَوَجَدوا السِّلاحَ ، وَوَجَدوا « آذاد » خارِجَ الحُجْرَةِ تَنْتَظِرُهُمْ ، فَقادَتْهُمْ إلى حَيْثُ يَنامُ الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ ، فَوَجَدوهُ يَغُطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ ، فَأَشارَتْ « آذاد » إلى « فَيْروز » لِيَدْخُلَ عَلَيْهِ ، فَدَخَلَ

« فيروز » ، وَفي يَدِهِ شَفْرَةٌ (سِكّينٌ) ماضِيَةٌ حادَّةٌ ، أَهْوى بِها عَلى عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ ، فَإذا هُوَ يَخورُ كَما يَخورُ الثَّوْرُ ، وَيَضْطَرِبُ كَما يَضْطَرِبُ البَعيرُ المَذْبوحُ !

سَمِعَ الحُرّاسُ خُوارَهُ ، فَأَسْرَعوا إلى المَقْصورَةِ الَّتي يَنامُ فيها عَدُوُّ اللهِ ، فَوَجَدوا « آذاد » واقِفَةً ، فَسَأَلوا : « ما هذا ؟ »

قالَتْ لَهُمْ : « إنَّ نَبِيَّ اللهِ يوحى إلَيْهِ . . انْصَرِفوا راشِدينَ ! »

فَانْصَرَفوا لا يَلْوونَ عَلى شَيْءٍ !

مَكَثَ فَيْروز وَصاحِباهُ في القَصْرِ ، حَتّى أَشْرَقَ الفَجْرُ ، فَصَعِدَ فيروز عَلى سورِ القَصْرِ ، وَأَذَّنَ أَذانَ الفَجْرِ قائِلاً :

« اللهُ أَكْبَرُ . اللهُ أَكْبَرُ

أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلا الله . أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلا الله .

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله . أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله .

وَأشْهَدُ أنَّ الأسْوَدَ العَنْسِيَّ كَذّابٌ . »

وَكانَتْ هَذِهِ كَلِمَةَ السِّرِّ ، الَّتي ما إنْ سَمِعَها المُسْلِمونَ حَتّى هَجَموا عَلى القَصْرِ هُجومَ الأسودِ عَلى فَرائِسِها ، وَاسْتَيْقَظَ الحُرّاسُ عَلى الأصْواتِ المُهاجِمَةِ ، فَهَبّوا مَذْعورينَ ، وَالْتَقى الجَمْعانِ في مَعْرَكَةٍ حامِيَةٍ .

أرادَ فَيْروز أنْ يُنْهِيَ المَعْرَكَةَ ، فَاحْتَزَّ رَأسَ الأسْوَدِ ، وَألْقاها بَيْنَ الْحُرّاسِ ، فَخارَتْ قُوَّتُهُمْ ، وَضَعُفَتْ عَزيمَتُهُمْ ، وَ وَلَّوا الأدْبارَ ، وَانْتَصَرَ المُسْلِمونَ قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ .

وَحينَ أسْفَرَ النَّهارُ كانَ أوَّلَ عَمَلٍ قامَ بِهِ المُسْلِمونَ - أنْ كَتَبوا رِسالَةً إلى النَّبِيِّ ﷺ يُبَشِّرونَهُ بِمَصْرَعِ الأسْوَدِ العَنْسِيِّ ، وَلَكِنْ ما يَكادُ الْمُبَشِّرونَ يَبْلُغونَ المَدينَةَ المُنَوَّرَةَ ، حَتّي يُفاجَئوا بِأنَّ الرَّسولَ ﷺ قَدِ انْتَقَلَ إلى الرَّفيقِ الأعْلى مِنْ لَيْلَتِهِ !

بَيْدَ أنَّهُمْ عَرَفوا أنَّ الوَحْيَ بَشَّرَ الرَّسولَ ﷺ بِمَقْتَلِ عَدُوِّ اللهِ ، في اللَّيْلَةِ الَّتي قُتِلَ فيها ، فَقالَ لأصْحابِهِ .

« قُتِلَ الأسْوَدُ العَنسِيُّ اللَّيْلَةَ :

قَتَلَهُ رَجُلٌ مُبارَكٌ مِنْ أهْلِ بَيْتٍ مُبارَكينَ . »

قالَ الصَّحابَةُ : « مَنْ هُوَ ، يا رَسولَ اللهِ ؟ »

قالَ ﷺ : « فَيْروز . .

« فازَ فَيْروز . »

تَحْتَ أسْوارِ القُسْطَنْطِينِيَّة

قَضى حَياتَهُ كُلَّها مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ ، فَما اسْتَطاعَتِ السِّنونَ أنْ تُضْعِفَ قُوَّتَهُ ، وَلا أنْ تُوهِنَ عَزيمَتَهُ ، حَتَّى إنَّهُ رَكِبَ البَحْرَ - وَهُوَ يَدْنو مِنَ الثَّمانينَ عامًا - في جَيْشٍ ضَخْمٍ ، أعَدَّهُ « مُعاوِيَةُ بْنُ أبي سُفْيانَ » بِقِيادَةِ ابْنِهِ « يَزيدَ » ؛ لِيَدْرَأ عَنِ العالَمِ الإسْلامِيِّ غائِلَةَ الرُّومِ ، وَيَدْفَعَ خَطَرَهُمْ .

وَلَكِنْ يَبْدو أنَّ مَشَقَّةَ السَّفَرِ ضاعَفَتْ أثَرَ الشَّيْخوخَةِ ، فَأضْعَفَتْ مِنَ المُجاهِدِ الشَّيْخِ عِظامَهُ ، فَسَقَطَ مَريضًا . وَلَمّا عادَهُ القائِدُ لِيَطْمَئِنَّ عَلى صِحَّتِهِ سَألَهُ :

« ألَكَ حاجَةٌ ، يا أبا أيّوبَ ، أسْتَطيعُ قَضاءَها ؟»

أجابَ « أبو أيُّوبَ الأنْصارِيُّ » : « أقْرِئْ جُنودَ الإسْلامِ

مِنِّي السَّلامَ ، وَبَلِّغْهُمْ أنْ يَثْبُتوا عِنْدَ اللِّقاءِ ، وَأنْ يَحْمِلوني مَعَهُمْ ، وَيَدْفِنوني تَحْتَ أسْوارِ القُسْطَنْطينِيَّةِ . »

وَصَمَتَ « أبو أيُّوبَ » ، وَرَفَعَ بَصَرَهُ إلى السَّماءِ ، فاحْتَرَمَ القائِدُ صَمْتَهُ ، وانْصَرَفَ .

كانَتِ الذِّكْرَياتُ قَدْ تَمَثَّلَتْ أمامَ عَيْنَيْ « أبو أيُّوبَ » ، وَتَجَسَّدَتْ كُلُّها في شَريطٍ يُعْرَضُ أمامَهُ . إنَّهُ يَرى أمامَ بَصَرِهِ رَسولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ جاءَ إلى المَدينَةِ مُهاجِرًا ، فَفَرِحَتْ بِهِ ، وَفَرِحَ بِها . وَيَراهُ وَقَدْ أقامَ في « قُباءَ » إحْدى ضَواحي المَدينَةِ ، وَأسَّسَ أوَّلَ مَسْجِدٍ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ ، ثُمَّ سارَ مِنْها بَعْدَ أرْبَعَةِ أيّامٍ قاصِدًا المَدينَةَ .

وَيَرى كِبارَ الأنْصارِ يَتَنافَسونَ : أيُّهُمْ يَنْزِلُ عِنْدَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ ، فَيَكونَ ذَلِكَ تَشْريفًا لَهُ وَتَعْظيمًا ؟ إنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَأخُذُ بِخِطامِ (مِقْوَدِ) النّاقَةِ ، وَيَقولُ : « انْزِلْ

عِنْدَنا ، يا رَسولَ اللهِ ، حَيْثُ القُوَّةُ وَالْمَنَعَةُ . »

وَرَسولُ اللهِ يَقولُ لَهُمْ : « دَعوها فَإِنَّها مَأْمورَةٌ . »

وَتَمْضي النّاقَةُ في طَريقِها ، وَكُلَّما جاوَزَتْ حَيّا مِنْ أَحْياءِ الأَنْصارِ حَزِنَ أَهْلُهُ ، وَفَرِحَ مَنْ يَتْلوهُمْ ؛ فَقَدْ يَكونُ عِنْدَهُمُ النُّزولُ . . وَلَكِنَّ « القَصْواءَ » ناقَةَ الرَّسولِ الكَريمِ تَمْضي وَتَمْضي ، حَتَّى تَبْلُغَ مَكانًا واسِعًا أَمامَ بَيْتِ « أَبو أَيُّوبَ » فَتَبْرُكَ . . وَيَقولُ الرَّسولُ الكَريمُ : « هُنا الْمَنْزِلُ ، إِنْ شاءَ اللهُ . »

وَتَسْري الفَرْحَةُ في أَعْماقِ « أَبو أَيُّوبَ » ، وَتَهُزُّهُ هَزًّا عَنيفًا . لَقَدْ بَرَكَتِ « القَصْواءُ » حَيْثُ يَنْبَغي لَها أَنْ تَبْرُكَ . كانَتْ مَأْمورَةً فَأَرْشِدَتْ إِلى المَكانِ .

وَيَتَذَكَّرُ « أَبو أَيُّوبَ » كَيْفَ تَقَدَّمَ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ حينَذاكَ ، وَقالَ لَهُ : « اِئْذَنْ لي ، يا رَسولَ اللهِ أَنْ أَنْقُلَ رَحْلَكَ . »

فَأَذِنَ لَهُ الرَّسولُ ، واحْتَمَلَ « أَبو أَيُّوبَ » الرَّحْلَ ، وَكَأَنَّهُ يَحْمِلُ كُنوزَ الدُّنْيا كُلَّها ، فَوَضَعَهُ في بَيْتِهِ .

وأَخَذَ « أَسْعَدُ بْنُ زُرارَةَ » بِمِقْوَدِ النّاقَةِ ، فَجَعَلَها عِنْدَهُ .

وَتَنافَسَ الأَنْصارُ : أَيُّهُمْ يُؤْوي رَسولَ اللهِ ؟

وَيَحْسِمُ رَسولُ اللهِ ﷺ المَوْقِفَ بِقَوْلِهِ : « المَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ . »

شَدَّ ما كانَتْ فَرْحَةُ « أَبو أَيُّوبَ » حينَ الْتَقَطَتْ أُذُناهُ هَذِهِ الجُمْلَةَ ، بَلْ لَقَدْ عَمَّتِ الفَرْحَةُ حَيَّ بَني النَّجارِ ، فَخَرَجَتِ الصَّبِيّاتُ يَضْرِبْنَ الدُّفوفَ ، وَيُنْشِدْنَ :

نَحْنُ جَوارٍ مِنْ بَني النَّجّارِ . . . يا حَبَّذا مُحَمَّدٌ مِنْ جارِ !

* * *

كانَ مَنْزِلُ « أَبو أَيُّوبَ » يَتَأَلَّفُ مِنْ طَبَقَةٍ فَوْقَها عُلِّيَّةٌ ،

فَأخْرَجَ مَتاعَهُ مِنَ العُلِّيَّةِ لِيَنزِلَ فيها رَسولُ اللهِ ﷺ ، وَلَكِنَّ الرَّسولَ الكَريمَ آثَرَ الطَّبَقَةَ السُّفْلى عَلى العُلِّيَّةِ ، فَأنْزَلَهُ « أبو أيُّوبَ » حَيْثُ أرادَ .

وَلَمّا جَنَّ اللَّيْلُ ، وَأوى الرَّسولُ الحَبيبُ إلى فِراشِهِ ، وَصَعِدَ الزَّوْجانِ إلى العُلِّيَّةِ – رَكِبَتْهُما الحَيْرَةُ ، وَاشْتَدَّ بِهِما النَّدَمُ !

قالَ « أبو أيُّوبَ » لِزَوْجَتِهِ : « كَيْفَ نَكونُ فَوْقَ وَرَسولُ اللهِ ﷺ أسْفَلَ ؟ كَيْفَ نَمْشي فَوْقَ رَسولِ اللهِ ﷺ ؟ أنَكونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الوَحْيِ ؟»

وَلَمْ يَعْرِفِ النَّوْمُ طَريقَهُ إلَيْهِما ، حَتَّى انْحازا إلى جانِبٍ مِنْ جَوانِبِ العُلِّيَّةِ ، وَتَجَنَّبا الْحَرَكَةَ ، خاصَّةً في وَسَطِها . ظَلا هَكَذا حَتَّى أصْبَحَ الصَّباحُ !

فَقالَ « أبو أيُّوبَ » لِلرَّسولِ الحَبيبِ : « يا رَسولَ اللهِ ، لَمْ يَغْمُضْ لَنا جَفْنٌ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . »

قالَ الرَّسولُ الحَبيبُ : « لِماذا ؟»

أجابَ « أبو أيُّوبَ » : « ذَكَرْنا أنَّكَ أسْفَلُ ، وَنَحْنُ فَوْقَ ، وَذَكَرْنا أنَّنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الوَحْيِ . »

هَدَّأَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ رُوعِهِ ، وَقالَ لَهُ : « لا عَلَيْكَ ؛ فَإنَّ هَذا أيْسَرُ لَنا لِكَثْرَةِ مَنْ يَأْتينا مِنَ النّاسِ . »

فامْتَثَلَ « أبو أيُّوبَ » لأمْرِ الرَّسولِ الحَبيبِ .

حَتَّى كانَتْ لَيْلَةٌ بارِدَةٌ شَديدَةُ البُرودَةِ ، فانْكَسَرَتْ جَرَّةٌ كانَتْ لِلزَّوْجَيْنِ في العُلِّيَّةِ ، وَساحَ ماؤُها فيها ، وَخَشِيَ الزَّوْجانِ أنْ يَتَسَرَّبَ الماءُ إلى رَسولِ اللهِ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُما غَيْرُ قَطيفَةٍ يَتَّخِذانِ مِنْها لِحافًا ، فَأخَذا يُجَفِّفانِ بِها أرْضَ العُلِّيَّةِ ، حَتَّى لا يَصِلَ الماءُ إلى الرَّسولِ الحَبيبِ .

فَلَمّا أشْرَقَ الصَّباحُ أسْرَعَ « أبو أيُّوبَ » إلى الرَّسولِ الحَبيبِ ، وَقالَ لَهُ :

« يا رَسولَ اللهِ ، أنّي أكْرَهُ أنْ تَكونَ أسْفَلَ ، وَأنْ أكونَ

فَوْقَ . »

ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِ ما كانَ مِنْ أمرِ الجرَّةِ ، فاسْتَجابَ الرَّسولُ الحَبيبُ لَهُ ، وَصَعِدَ إلى العُلِّيَّةِ ، وَنزَلَ الزَّوْجانِ إلى الطَّبَقَةِ السُّفْلى .

وَدامَتْ إقامَةُ الرَّسولِ ﷺ في بَيْتِ « أبو أيُّوبَ » سَبْعَةَ أشْهرٍ ، حَتَّى اكْتَمَلَ بناءُ المَسْجِدِ ، وَبناءُ الحُجُراتِ حَوْلَهُ فانْتَقَلَ إلَيْها الرَّسولُ الحَبيبُ ، وَأصْبَحَ « أبو أيُّوبَ » جاراً لَهُ ، يَنْعَمُ بِجوارِهِ ، كَما حَظِيَ بِتَكْريمِهِ وَتَشْريفِهِ .

* * *

اِنْتَقَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى بَيْتِهِ ، وَألْزَمَ « أبو أيُّوبَ » نَفْسَهُ عادَةً ، ما تَخَلَّفَ عَنْها قَطُّ ، حَتَّى انْتَقَلَ الرَّسولُ الحَبيبُ إلى بارِئِهِ ، فَقَدْ كانَ « أبو أيُّوبَ » يَدَّخِرُ طَعامًا لِلرَّسولِ الحَبيبِ ، فَإذا جاءَ الرَّسولُ الحَبيبُ في حينِهِ قَدَّمَهُ إلَيْهِ ، وَإذا أبْطَأَ عَلَيْهِ قَدَّمَهُ إلى عِيالِهِ . وَفي يَوْمٍ خَرَجَ

الرَّسولُ ﷺ مِنْ بَيْتِهِ في الهاجِرَةِ إلى المَسْجِدِ ، فَوَجَدَ رَجُلَيْنِ مِنْ أصْحابِهِ ، هُما : أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، فَقالَ : « ما الَّذي أخْرَجَكُما في هَذا الحَرِّ الشَّديدِ ؟ »

قالا : « واللهِ ، ما أخْرَجَنا ، يا رَسولَ اللهِ ، إلا هَذا الجوعُ الشَّديدُ ، الَّذي نَجِدُهُ في بُطونِنا . »

فَقالَ لَهُما الرَّسولُ الكَريمُ : « لَقَدْ أخْرَجَني هَذا الجوعُ الَّذي أخْرَجَكُما . » ثُمَّ قالَ لَهُما : « هَيّا بِنا . »

وَانْطَلَقَ الرَّجُلانِ مَعَ الرَّسولِ الحَبيبِ ، فَأتَوْا بَيْتَ أبي أيُّوبَ .

طَرَقَ الرَّسولُ الكَريمُ البابُ ، فَخَرَجَتْ « أمُّ أيُّوبَ » فَسَألَها الرَّسولُ : « أيْنَ أبو أيُّوبَ ؟ »

قالَتْ : « إنَّهُ في خارِجِ الدّارِ . »

وَكانَ « أبو أيُّوبَ » يَعْمَلُ في نَخْلٍ لَهُ ، قَريبٍ مِنْ دارِهِ ، فَسَمِعَ صَوْتَ الرَّسولِ الحَبيبِ ، فَجاءَ مُسْرِعًا ،

وَقالَ : « مَرْحَبًا بِكَ ، يا رَسولَ اللهِ ، وَبِمَنْ مَعَكَ . »

ثُمَّ أَرْدَفَ قائِلاً : « يا رَسولَ اللهِ ، لَيْسَ هَذا هُوَ الوَقْتَ الَّذي تَعَوَّدْتَ أَنْ تَأْتِيَنا فيهِ . »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ : « صَدَقْتَ . »

وَأَسْرَعَ « أبو أَيُّوبَ » إلى بُسْتانِهِ ، فَقَطَعَ عِذْقًا (سُباطة) مِنْ نَخْلَةٍ ، فيهِ تَمْرٌ وَرُطَبٌ وَبُسْرٌ ، وَأَقْبَلَ مُسْرِعًا إلى الرَّسولِ وَصاحِبَيْهِ . فَقالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ : « ما رَغِبْتُ في أَنْ تَقْطَعَ هَذا ، كانَ يَنْبَغي أَنْ تَجْتَنِيَ لَنا مِنْهُ ما نَأْكُلُهُ . »

قالَ أبو أَيُّوبَ : « يا رَسولَ اللهِ ، أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ تَمْرِهِ وَرُطَبِهِ وَبُسْرِهِ . وَلأَذْبَحَنَّ لَكَ . »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ : « إِذا ذَبَحْتَ فَلا تَذْبَحْ ذاتَ لَبَنٍ . »

وَأَخَذَ « أبو أَيُّوبَ » جَدْيًا ، فَذَبَحَهُ ، ثُمَّ قالَ لامْرَأَتِهِ : « اِعْجِني وَاخْبِزي ؛ فَأَنْتِ أَعْلَمُ بِالخَبْزِ . »

وَأَخَذَ نِصْفَ الجَدْيِ فَطَبَخَهُ ، وَشَوى النِّصْفَ الثّانِيَ .

وَحينَ نَضِجَ الطَّعامُ قَدَّمَهُ « أبو أَيُّوبَ » بَيْنَ يَدَيِ الرَّسولِ ﷺ وَصاحِبَيْهِ ، فَأَخَذَ الرَّسولُ الرَّحيمُ قِطْعَةً مِنَ اللَّحْمِ ، وَوَضَعَها في رَغيفٍ ، ثُمَّ قالَ :

« بادِرْ - يا أَبا أَيُّوبَ - بِهَذا إلى « فاطِمَةَ » ؛ فَإِنَّها لَمْ تَذُقْ مِثْلَهُ مُنْذُ أَيّامٍ ! »

وَأَكَلَ الرَّسولُ وَصاحِباهُ حَتّى شَبِعوا ، فَدَمَعَتْ عَيْنا الرَّسولِ الكَريمِ وَقالَ لأَصْحابِهِ :

« خُبْزٌ وَلَحْمٌ ، وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ وَبُسْرٌ ! هَذا - وَاللهِ - هُوَ النَّعيمُ الَّذي سَتُسْأَلونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ ! إِذا رَزَقَكُمُ اللهُ مِثْلَ هَذا فَقولوا قَبْلَ أَنْ تَضْرِبوا بِأَيْدِيكُمْ فيهِ :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فَإِذا شَبِعْتُمْ مِنْهُ فَقولوا : ‹‹ الحَمْدُ للهِ الَّذي أَشْبَعَنا ، هُوَ الَّذي أَنْعَمَ عَلَيْنا وَأَفْضَلَ ›› »

ثُمَّ نَهَضَ الرَّسولُ الحَبيبُ ، وَنَهَضَ مَعَهُ صاحِباهُ : أبو

بكرٍ وعُمَرُ ، وقالَ لِصاحِبِ الدّارِ : « تعالَ إلَيْنا غداً . »

* * *

كانَ مِنْ دأبِ الرَّسولِ ﷺ وعادتِه أنْ يُجازيَ مَنْ يصْنَعُ معَهُ معْروفًا ، ولا يترُكُهُ دونَ مُكافأةٍ ؛ تَطْبيقًا لِلْمَبْدأ القُرْآنِيِّ الكَريمِ ﴿وَهَلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلا الإحْسانُ .﴾

فلَمّا كانَ الغدُ سعى « أبو أيُّوبَ » إلى الرَّسولِ ﷺ كَما أمَرَ ، فأعْطاهُ الرَّسولُ جاريةً صغيرةً كانَتْ تخْدُمُهُ ، وقالَ لَهُ : « اِسْتَوْصِ بِها خيْرًا . »

عادَ « أبو أيُّوبَ » إلى بَيْتِهِ ، وبِصُحْبتِهِ هذهِ الجارِيَةُ الصَّغيرَةُ الَّتي منَحَها لهُ الرَّسولُ الكَريمُ ، تَشْغَلُ بالَهُ هَذهِ الوَصِيَّةُ الَّتي أوْصاهُ بِها الرَّسولُ الحَبيبُ : ما الخَيْرُ الَّذي يُمْكِنُ أنْ يُقدِّمَهُ لِهذِهِ الجارِيَةِ ؟

ودخَلَ بَيْتَهُ ، واسْتَقْبَلَتْهُ زَوْجُهُ ، وقالَتْ لَهُ : « مَنْ هَذهِ الَّتي مَعَكَ ؟»

قالَ « أبو أيُّوبَ » : « عَطِيَّةٌ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ . »

قالَتْ زَوْجَتُهُ : « أكْرِمْ بِهِ مِنْ مُعْطٍ ! وأكْرِمْ بِها مِنْ عَطِيَّةٍ ! »

قالَ أبو أيُّوبَ : « وَأوْصانا أنْ نَفْعَلَ بِها ولَها خَيْرًا . »

قالَتْ أمُّ أيُّوبَ : « وَماذا سَتَصْنَعُ بِها ولَها ؟»

قالَ أبو أيُّوبَ : « لا أدْري . »

قالَتْ أمُّ أيُّوبَ : « واللهِ ، لا أعْرِفُ خَيْرًا تصْنَعُهُ بِها ولَها أفْضَلَ مِنْ أنْ تَعْتِقَها ، وتَرُدَّ عَلَيْها حُرِّيَّتَها . »

اِغْتَبَطَ « أبو أيُّوبَ » بِما قالَتْهُ زَوْجَتُهُ ، وقالَ لَها :

« نِعْمَ الرَّأْيُ ، يا أمَّ أيُّوبَ ، فَلا خَيْرَ لَها أفْضَلُ مِنْ عِتْقِها . »

وأعْتَقَ « أبو أيُّوبَ » الجارِيَةَ الصَّغيرَةَ .

طافَتْ هَذهِ الذِّكْرَياتُ بِذِهْنِ الشَّيْخِ المُجاهِدِ ، وتَمَثَّلَتْ

أمامَ ناظِرَيْهِ شاخِصَةً حَيَّةً ، كَأنَّها حَدَثَتْ بِالأمْسِ القَريبِ . . لَقَدْ أحَبَّ « أبو أيُّوبَ » رَسولَ اللهِ ﷺ حُبًّا يَفوقُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَبادَلَهُ الرَّسولُ الحَبيبُ حُبًّا بِحُبٍّ ، وَمَوَدَّةً بِمَوَدَّةٍ ، حَتَّى كانَ الرَّسولُ الكَريمُ يَنظُرُ إلى بَيْتِ « أبي أيُّوبَ » وَكَأنَّهُ بَيْتُهُ . وَشَهِدَ « أبو أيُّوبَ » مَعَهُ المَعارِكَ كُلَّها ، ما تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةٍ مِنْ غَزَواتِهِ . وَوَعى تَحْذيرَ اللهِ وَرَسولِهِ مِنَ النُّكوصِ عَنِ الجِهادِ ، وَالقُعودِ مَعَ المُتَخَلِّفينَ ؛ فَما اسْتَطاعَ وَهْنُ الشَّيْخوخَةِ أنْ يُقْعِدَهُ ، وَلا طيبُ المُقامِ أنْ يُغْرِيَهُ ، فَرَكِبَ البَحْرَ ، وَمَخَرَ عُبابَهُ (شَقَّ أمْواجَهُ) ، وَهُوَ يَحْبو نَحْوَ الثَّمانينَ مِنْ عُمْرِهِ ؛ حُبًّا في اللهِ وَرَسولِهِ ، وَطاعَةً لَهُما ، وَالْتِزامًا لأمْرِهِما ، وَطَمَعًا فيما أعَدَّهُ اللهُ لِلْمُجاهِدينَ .

ثُمَّ غَمْغَمَ المُجاهِدُ الشَّيْخُ بِكَلِماتٍ لَمْ يَتَبَيَّنْها سامِعوهُ بِدِقَّةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ فَهِموا مَضْمونَها وَفَحْواها : إنَّهُ يَرْجو ما

عِنْدَ رَبِّهِ ، وَيَسْألُهُ أنْ يَجْمَعَهُ مَعَ نَبِيِّهِ ﷺ ، ثُمَّ فاضَتْ روحُهُ الطَّاهِرَةُ !

وَاحْتَمَلَ الجُنودُ جُثْمانَهُ ؛ اسْتِجابَةً لِوَصِيَّتِهِ ، وَهَجَموا عَلى عَدُوِّهِمْ ، وَاسْتَماتوا في هُجومِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، حَتَّى بَلَغوا أسْوارَ القُسْطَنْطينِيَّةِ ، وَهُناكَ أوْدَعوا صاحِبَ رَسولِ ﷺ وَجارَهُ مَثْواهُ الأخيرَ .



سِلسلة تربويّة تثقيفيّة إسلاميّة

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

١- المولد والنشأة
٢- الرسول في المدينة
٣- الفتح والوفاة
٤- حاضنة الإسلام
٥- سابق الحبشة
٦- صديق القرآن
٧- الشهيد الحي
٨- الباحث عن الحق
٩- أم حبيبة
١٠- الراكب المهاجر



مكتبة لبنان ناشرون
الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان